تطبع لأول مرة

رواية

سعد محمد رحيم

لمّا تحطّمت الجرّة

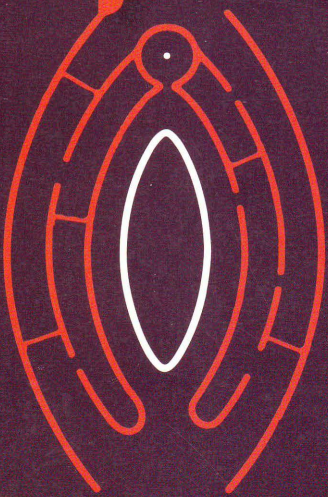

سطور
للنشر والتوزيع

سطور

لمّا تحطّمت الْجرَّة

سعد محمد رحيم

الطبعة الأولى: 2018

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

العراق - بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا

ص.ب: 74090

الرمز البريدي: 12114

07700492576 - 07711002790 :هاتف - email: bal - alame@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للدار والمؤلف سعد محمد رحيم، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الطرفين.

First Published by Dar Sotour For Publishing and Distribution Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

Revised copyright © Dar Sotour And Saad Mohammed Rahim The right of the Auhor of this work has been asserted in accordanee with the Copyright Designs and patents Act 1988

هام: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن راي كاتبها أو محررها، ولا تعبر بالضرورة عن راي الناشر

ISBN: 978 - 9922 - 608 - 11 - 2

سعد محمد رحيم

لمّا تحطّمت الجرّة

رواية

اليوم الأول

«ألم يصل الآخرون؟».

«لا أظنهم سيصلون قبل الظهر».

وطلبَ كأسَ ماء..

جلس على إحدى الأريكتين الخشبيتين في الصالة.. تحسّس قماش الشرشف تحته برؤوس أصابعه، وبقي يمررها عليه مستمتعاً بالملمس الناعم لوبر القطيفة الخضراء وهو يجيل النظر حوله.. لم يتيقن تماماً ممّا يمكن أن يكون قد تغيّر منذ آخر مرّة كان هنا. لفت نظره وجود بندقية صيد بماسورتين من نوع (براوننغ) معلّقة على الحائط، ومعرض تحفيّات نصف مزجّج، تقشّر طلاؤه، في خانته الوسطى الكبيرة، جهاز تلفزيون وستلايت، وعلى جانبيها رفوف عليها أقداح زجاجية وصحون خزف ومزهريات فارغة. وأسِف لأن عقارب ساعة الحائط القديمة، ذات الرقّاص الذهبي، متوقّفة.

«مضت سنوات».

قالت المرأة وهي تناوله كأس الماء.

أطرق قليلاً بملامح توحي وكأنه على وشك أن يقول لها؛ «كأنها لم تمضِ». لكنه رنا إليها وتساءل:

«أليس من خبر جديد؟».

«لا».

شرب الماء في جرعات، وعلى مهل، وتسمّرت عيناه بعيني الشيخ في الصورة الكبيرة المؤطّرة بالعاج فوق بندقية الصيد؛ عينان باهتتان تحت عِمّة مكيّة مقصّبة. الوجه مدوّر بشاربين خفيفين، تحفّهُ لحية بيضاء خفيفة، فيما الرقبة نحيفة، متغضِّنة.

«كيف حدث ذلك؟».

«لا أحد يدري.. استيقظت صباحاً ولم أجده».

مدّ لها يده بالكأس الفارغة، وقال:

«ماذا تعتقدين يا أمينة؟».

«ربما كانوا ينتظرونه في البستان.. هو يستيقظ في منتصف الخامسة، يصلّي الفجر ويخرج».

«قلتِ إنهم اتصلوا بكِ من موبايله هو».

«لم يقولوا شيئا محدداً».

«لا شيء بالمرّة؟».

«أخبرونا أنه معهم».

أخرج علبة سجائره.. استل سيجارتين.. أشعل سيجارتها قبل سيجارته بقدّاحة زرقاء صغيرة.. أعاد العلبة والقدّاحة إلى جيب سترته.. مع أول نفثة دخان وضعتْ أمينة مرمدة زجاجية نظيفة على طاولة قصيرة القوائم أمامه.

«ألم يتورّط مع أحد؟».

«أنتَ تعرف أباك جيداً.. تعرفه أكثر من الآخرين».

أخذ نفسا آخر من سيجارته التي تكاد تنسحق بين إصبعي السبابة والوسطى. ولم يعلّق.. قالت:

«إنه زمن سيِّئ يا باسم».

هزّ باسم رأسه، كما لو أن وقع اسمه بدا غريباً في أذنيه.. كأنها خاطبت شخصاً آخر في المكان، غير مرئي له.. تمتم مترنِّماً بإيقاع مقام العجم:

«أيّ هراءٍ، أيّ هراءٍ، أيّ هراءٍ هو الزمن».

«ماذا؟».

«لا شيء.. كنتُ أغنّي»

رسمت ابتسامة شاحبة على وجهها.

«أنت كما أنت.. كما كنت، وستظل..».

أطلقَ ضحكة جافة، قصيرة.. نفث كرة دخان راحت تتلوى عالياً، ورفع رأسه يراقبها كيف تتبدد.

«اسمح لي، هم في الطريق، وعليّ إعداد وجبة الغداء لهم».

مشت نحو المطبخ بخطوات ثقيلة فيما أخذ هو نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن يسحقها في المرمدة.. تذكّر أنه لم ينم الليلة الفائتة إلا أقلّ من ساعة.. تمدّد على الأريكة.. وضع مخدّة الاتكاء المورّدة والمشرشبة تحت رأسه وأغمض عينيه.

***

توقّف القطار.. صعدت امرأة عجوز العربة الأولى بصُرّة في يدها.. نزل رجلٌ وامرأة، كلاهما في أواسط العمر، من العربة الثالثة.. لا أحد آخر..

الرجل يرتدي بدلة قهوائية وكنزة صوفية بلون مشمشي. يزرر سترته ويمشي حاملاً حقيبة مضلّعة تقشّر جلدها الأسود. تتبعه المرأة بجبّتها الكحلية وحقيبة اليد البيضاء تتدلى من يدها. تبدو أطول منه وأكثر نحافة، ولكن بطاقة أنوثة فائضة.

«لا أحد هنا!».

أبصرا صبياً.

«ألا توجد سيارة توصلنا إلى البلدة؟».

«فقط عربة أبي أحمد».

«وأين هي؟».

«أبو أحمد مريض اليوم».

التفت الرجل نحو المرأة متبرِّماً.. قال الصبي:

«إمشيا ربع ساعة وستصلان».

وأستدرك:

«يمكن أن أحمل الحقيبة مقابل ألف دينار».

لم يأبها لكلامه.. اتخذا الطريق المترب نحو البلدة.. قالت:

«العالم دخل القرن الحادي والعشرين وما زالت بلدتكم في القرن التاسع عشر.. كان الأجدر أن نأتي بسيارتنا».

رمقها شزرا ولم ينبس، فيما عاط القطار مغادراً المحطة..

ريح باردة خفيفة توخز وجهيهما.. يمرُّ سربٌ من الزاغ بزعيق حاد فوق أشجار النخيل والصفصاف والكالبتوس على الجانب الأيمن من الطريق.

«مثلما قلتُ لك».

«لا تعيدي الأسطوانة مرّة أخرى».

«سيطلبون مالاً.. نحن لا نملك شيئاً».

«إنه أبي».

«يمكن بيع أي شيء من أملاكه».

«كم مرّة أكرّر أن الأملاك كلّها باسمه، ولا يمكن بيع أيٍّ منها».

«أقسم بأنه سجّل بعضها باسم تلك العاهرة».

«ما زلنا لا نعرف شيئاً».

«لا سمح الله إذا قتلوه سنقترح بيع كل شيء.. أتمنى ألّا تحصل أمينة على فلس واحد».

«تتمنين... حقاً.. تتمنين أن يقتلوه».

«لا أتمنّى.. أتكلم عن احتمال مرجّح».

«أنتِ بلا قلب».

«وماذا يفيد القلب حين يلتمّون بمخالبهم على الذبيحة؟، لا تنس، ربما تكون هي متورّطة».

«اسكتي».

تسكت.

***

دخلا الصالة.. وضع الرجل ذو البدلة القهوائية حقيبته على طرف السجّادة الفارسية العتيقة.. استيقظ باسم وجلس ناظراً إلى ساعة الحائط المتوقفة.. ابتسم وبقايا نعاس في عينيه..

قال الرجل: «وجدنا الباب غير مغلق ودخلنا».

قالت المرأة:

«كيفك باسم؟».

«أهلاً عاتكة.. كيفك أنتِ؟».

نهض وأحنى ظهره إلى الوراء ليريح فقراته.. اقترب من الرجل ذي البدلة القهوائية.. تصافحا.. تعانقا.

«ما الأخبار؟».

«سيتصلون في الرابعة».

«ما حقيقة هذا الذي يحصل؟».

«مثلما يحصل في كل مكان، هنا أو هناك».

«أتعتقد أنهم سيطلبون نقوداً؟».

«وماذا غير ذلك؟».

تقبل أمينة من المطبخ وهي تنشّف يدها بفوطة بيضاء.. ترمي الفوطة على مسند الأريكة وتعانق عاتكة.

«كيف حالك عادل؟».

«تسلمين أمينة.. كيف يمكن أن أكون؟».

«الله كريم.. استريحوا».

يجلس عادل وعاتكة على الأريكة، ويبقى باسم وأمينة واقفين.. تسأل أمينة: «عند من تركتم الأولاد؟». تجيب عاتكة: «عند أمي.. من غيرها؟. سترعاهم أختي سهيلة».. يخيّم عليهم صمت متوتر قبل أن يكسره عادل:

«أهي الحادثة الأولى في البلدة؟».

«لا، قتلوا بعض الرجال، الناس هنا خائفة، وتقول أيّ كلام يخطر على بالها.. لم يسبق أن خطفوا أحداً واتصلوا.. يخطفون ويقتلون».

«والشرطة؟».

«الشرطة تحمي نفسها».

سألت عاتكة:

«اتصالاتهم معكِ، أليس كذلك؟».

«اتصلوا من موبايله مرّة واحدة أمس.. وحدّدوا الموعد».

«ستفاوضينهم أنتِ».

بان على ملامح أمينة الانزعاج.

«أبو أمجد سيأتي بعد صلاة العصر.. قال إنه سيتكلم معهم إن لم تمانعوا».

قالت عاتكة:

«أرى أن يفاوضهم أحد أبنائه».

قال باسم:

«أتصوّر أن أبا أمجد يستطيع أن يلاسنهم أفضل منّا».

«وما بكم أنتم؟».

«هو ابن البلدة، وابن سوق، وأكيد هو يعرف أموراً لا نعرفها».

قالت أمينة:

«كأنهم أشباح، يفعلون ما يشاؤون».

«من يدري ماذا؟ ومن؟ وكيف؟».

يترامى صوت منبِّه سيارة فيلتفتون نحو الباب الذي يفضي إلى الحديقة، والمرأب الصغير.. تقول أمينة:

«وصلت نجاة وزوجها».

ترد عاتكة بسخرية:

«اكتملت المسبحة».

***

«تأخرنا بسبب السيطرات في الطريق»

«كأننا خرجنا في يوم المحشر».

عقّب الشيخ رفعت على كلام زوجه، وهو يخلع سترته الغامقة الزرقاء من قماش الكبردين وعرقجينه الأبيض، ويناولهما لأمينة، ويجلس على كرسيٍّ من اللدائن.. كانت دشداشته الكحلية، خامتها من صوف الكشمير، نظيفة ومكوية. وساعته ذات السوار الفضي، ماركة Bernhard H. MAYER سويسرية الصنع، لا يقل سعرها عن الألف دولار، تلصف تحت ضوء النيون. وإلى جانبه على كرسيٍّ آخر جلست نجاة بربطة رأسها الفستقية وعباءتها الإسلامية المطرّزة عند الصدر بخرز العقيق في أشكال متموجة.. ملامحها المتجملة بماكياج خفيف رقيقة مرهقة، وقد برّز شحوبُها شفتيها الورديتين الممتلئتين.. تُخرج هاتفها النقّال من حقيبتها الأنيقة من ماركة Fendi Peekaboo وتسأل أحداً ما عن طفليها.. تخبرهم بعد انتهاء المكالمة أنها تكلّمت مع المربية التي أودعت الطفلين عندها مقابل خمسين دولاراً في اليوم.

***

«ها أنتم رجعتم إلى بيتكم القديم، وغرفكم القديمة.. غرفتا باسم وعادل في الطابق الأعلى، وغرفة نجاة، هنا، إلى جانب غرفتي.. لو جاء فريد الآن فغرفته جاهزة أيضاً.. طبعاً هو لن يجيء.. غرفته لصق غرفة باسم.. حرص والدكم على أن تبقى الغرف نظيفة وجاهزة. ولطالما تفقّدها.. كان يريدكم أن تعودوا.. ها أنتم عدتم، ولكن مؤقتاً، وفي الوقت الذي غاب هو.. الأسرّة عريضة.. لم أبدِّل سوى الشراشف والأغطية.. المشكلة الوحيدة عندنا هي الحمّام.. ليس هناك سوى حمّام واحد في الطابق الأسفل.. الحمّام والمرحاض كما تعلمون غير مفصولين وفي قاطع واحد.. الحمد لله لأن لا أحد منكم مصاب بالسكّري.. بنينا مرحاضاً في زاوية الحديقة الأمامية للفلاحين والضيوف، ولكن من يستخدم مرحاضاً خارجياً في هذا الزمهرير؟. أنتم أهل الدار ولستم ضيوفاً».

يقول باسم:

«عرفناكِ منظِّمة دائماً كرئيس عرفاء وحدة جيّد في الجيش»

يبتسمون:

«هناك دواليب أيضاً.. دواليبكم الخشبية القديمة.. هي صغيرة، لكنها ما تزال صالحة.. حرصنا على ألا تنخرها الأرضة.. لحسن الحظ لسنا في موسم الصيف وإلا لكنتم تعانون من البق والحشرات، ومن الزيارات غير المتوقعة وغير المرحب بها للأفاعي»

تقول عاتكة:

«أفاعي؟ يا ستّار».

«الغرف فيما عدا غرفة باسم تطلُّ على البستان.. حاولوا ألا تزيحوا الستائر وتنظروا، لاسيّما في الليل.. قد يكونون هناك».

لم يعلِّقوا.. انصرفوا إلى غرفهم.

***

بعدما ألقى بمؤخرته الممتلئة على الكرسي فوجئ بها جالسة، واضعة ساقاً على ساق، في أقصى زاوية الصالة، بثوب أزرق غامق من الكتّان، مشرشب بالدانتيل.. كانت الستارة المخملية مسدلة والكهرباء مقطوعة:

«آه، أنتِ هنا».

«العتب على النظر».

«هههه، ما أخبارك عاتكة؟».

«عائشة، تسلم يا شيخ».

«شيخ، يا شيخة؟»

وضحك بصوت خافت، ناظراً إلى جهة الباب.

«شيخة، لِمَ لا؟. ما دمنا في زمان الشيوخ المزيّفين».

«زمان يا حب»

قالها هامساً وضحك ثانية.

«واللهِ تصلح للتمثيل.. أعجب لأنك لم تختر هذه المهنة».

«أتنغزينني، أم هو إطراء؟».

«إطراء طبعاً، فأنت تُحسن التمثيل حقاً».

«كلّنا نمثِّل أدواراً نختارها، أو تختارنا.. ومن قال عكس هذا فهو دعيّ، ويمثِّل أيضاً.. وكمثال؛ في ذلك النهار الماطر، قطعاً أنكِ لم تنسِيه، كنّا نمثِّل حقيقتنا».

وعاد يضحك بالدرجة الواطئة ذاتها.

«أنت حاذق في وضع قناعك أكثر من أي شخص عرفته».

«إذاً أنتِ لا تعرفين كثراً من الناس.. من غير الأقنعة ما كان لأحدٍ منّا القدرة على النظر في عيون الآخرين».

«وإن سقط في غفلةٍ منكَ».

«على كل واحد منّا الانتباه جيداً كي يحول دون سقوطه».

«من معرفتي بك، فيكِ نقطة ضعف قاتلة.. أخشى في يوم من الأيام...».

دخلت أمينة:

«مساء الخير».

مشت نحو النافذة، وبدا أنها تروم إزاحة الستارة كي يتسلل شيء من ضوء بقايا النهار إلى الصالة، لكن تيار الكهرباء، في هذه اللحظة، أنار المكان.. قال الشيخ رفعت:

«اللهم صلِّ على محمد...»

قالت نجاة:

«هذه الكهرباء الوطنية، تزورنا حسب المزاج، أما كهرباء مولِّدة المنطقة، فمن الخامسة مساءً وحتى منتصف الليل»

***

«هو تايه الأعرج».

قالت أمينة، ورشفت قليلاً من استكان الشاي.. أردفت:

«تايه اسم غير مألوف في البلدة.. لا أحد غيره يحمل هذا الاسم هنا».

قالت نجاة:

«أعتقد أنهم أطلقوه عليه لسبب.. هناك قصة وراء ذلك».

وغمست قطعة بسكويت في استكانها وأكلتها.. سألت عاتكة وهي تضحك:

«والأعرج، ما أصله؟. اسم قبيلة ما أم شلل أطفال؟».

قال عادل:

«لأن له ساقاً أقصر من الثانية بنصف قدم.. تشوه خَلْقي.. هكذا انزلق إلى الدنيا».

قالت عاتكة وهي تفرك حبات فستق بين أصابعها لتزيل عنها القشور، وكانت ما تزال تضحك:

«لم نعرف بعد لماذا حمّلوه هذا الاسم الأسطوري»

قالت نجاة:

«قيل إنه من الغجر.. كان الغجر يأتون مع كثير من الحمير وبملابس مزركشة ويخيّمون خلف سكة القطار».

«لا.. ليس هم الغجر من عافوه.. يقول أبي كان ذلك في عزّ الصيف والغجر كانوا يأتون أول الربيع.. ثم أن الغجر لا يتركون أحداً.. حتى المشوّه يمكن أن يستفيدوا منه في التسوّل».

ردّت أمينة:

«هو تخلّف عن قافلة حجّاج من الفرس.. تاه عنهم».

صحّح عادل:

«الاحتمال الأكبر أنهم كانوا من أذربيجان إيران.. حتى وهو بهذا

العمر ترون فيه بقايا وسامة.. بشرته بيضاء، وعيونه واسعة.. تاه عنهم.. ربما نسوه، والأرجح أنهم تخلّصوا منه.. حدث هذا مع آخرين.. ثلاثة من عرجان هذه البلدة وأعميان هم من متسرّبي تلكم القوافل.. أبي حكى عنهم.. غير أن هذا الجيل لا يعرفون هذه الحقيقة.. أو لا يبالون»

علّق باسم:

«كان أبو أمجد محظوظاً أكثر من الآخرين.. وجد عائلة.. وجد فرصة جيدة في الحياة»

قال عادل:

«البلدة كانت واقعة على طريق قوافل الحجّاج.. كانت فيها سبعة خانات.. الخان هو نزل للمسافرين. وكان يقوم مقام الفندق.. ازدهرت البلدة، واغتنى بعضهم، لأن أعداداً كبيرة من حجّاج مراقد الأئمة والديار المقدسة كانوا يمرّون من هنا.. فرسٌ وهنود وأفغان وباكستانيون وأذربيجانيون.. ومن تركمانستان والشيشان، حتى الصين.. سنّة وشيعة ومتصوِّفة.. قوافل التجارة كانت تتبع هذا الطريق أيضاً».

وهي تقضم حبّات فستق، عادت عاتكة تسأل:

«لم تقل لنا يا باسم، لم كان أبو أمجد محظوظاً؟».

احتسى باسم آخر رشفة من استكانه، وطلب من أمينة استكاناً آخر.. قال:

«تبنّاه رجل كردي يدعى مام مصطفى، لم يكن له أولاد.. كان فلاحاً في بستان جدي.. أبي كان يكبر تايهّا بأربع سنين أو خمس.. ومع ذلك تصادقا.. كانا يلعبان معاً وهما صغيران.. دخل تايه المدرسة وأكمل فيها الابتدائية.. نشأا معاً ولم يفترقا منذ ذلك الحين.. أبي لا يثق بأحد مثلما يثق بتايه الأعرج.. لم ترض عائلات كثيرة تزويج بناتهم منه لأصله غير المعروف.. في النهاية تزوج من بنت فقيرة تدعى زبيدة على وجهها بقايا آثار الجدري.. أنجبا أربع بنات هنَّ الأجمل في البلدة، تزوّجن كلّهن من أبناء عائلات محترمة.. ولم يولد أمجد إلا أخيراً»

أكمل عادل:

«عمل تايه فلاحاً في البدء، غير أن أبي جعله وكيله وأعطاه المفاتيح كلها.. لم يخب ظنّه فيه.. وتايه لم يخن أبي قط.. أنا شخصياً لا أحبّه.. أكثر شخص في البلدة لا أحبّه هو تايه الأعرج. لكن الحق يُقال».

***

رن جرس الموبايل الموضوع على الطاولة ذات الأرجل القصيرة.. رنين أجفل أمينة، ورسم خيط فزع في العيون.. أمسك أبو

أمجد بالموبايل بقوة كما لو أنه لا يريد أن تبين ارتعاشة يده.. ناظراً إلى السقف لتحاشي النظرات التي صُوّبت نحوه، وقال:

«نعم».

«.....».

«أنا أبو أمجد.. الحاج تايه»

«.....»

«أخي لماذا تشتم أمي؟..... حسنا، حسناً، مقبولة منك..... أولاده موجودون؛ عـادل وباسم ونـجـاة..... الشيخ رفعت معنا..... هو زوج نجاة..... وزوجة عادل معنا أيضا؛ ست عاتكة..... أمينة، نعم زوجته..... أنتم تعرفون الحاج إبراهيم جيداً، حجّ بيت الله مرتين وأدى فريضة العمرة..... هو ليس بخيلاً، يشتغل بيديه في البستان لأنه يحب الشغل..... أرجوك أخي ما لك وأختي..... العفو، مقبولة منك..... نريد أن نعرف..... أولاده قلقون..... أوف..... نعم..... ماذا، لماذا؟..... نعم.....».

التفت أبو أمجد، مسرِّحاً نظرة ذاهلة في الوجوه.. السؤال العالق في الحناجر والذي لم ينطق به أحد هو؛ ماذا؟.. جلس وسط الأريكة وألقى الموبايل على الطاولة، شرب نصف قدح ماء كان أمامه.. قال:

«شتمني ابن الكلب.. شتمكم جميعا.. لم يقل شيئاً واضحاً.. قال هو يختبرنا.. قال إن رقبتي تستحق الذبح.. قال لو أخبرنا الشرطة لن يخرج أي واحد منكم حياً من البلدة، وأقفل الخط».

قالت عاتكة:

«هذا لا يعقل».

سأل عادل:

«ألم يطلبوا مالاً؟».

«لم يطلب شيئاً».

«يريدون أن نبقى في أقصى درجات القلق، وعندها سنرضى بما يطلبون».

«ما هو.. ماذا تعتقد أنهم سيطلبون؟».

«من يدري.. أي شيطان يدري؟».

***

تندغم البساتين في الليل. تحلُّ تلك الفاصلة من الزمن.. تقول أمينة: «هي عشر دقائق غريبة». تُعلمهم كيف تتطامن فيها الأشياء، وتلبث في كل قلب يدقُّ وحشة. يقطعها، أخيراً، عواء ابن آوى وحيد. من ثمّ ستنبح الكلاب. كلاب البلدة بأجمعها ستشرع بالنباح. بعد

عشر دقائق تكون الأبواب قد غُلِّقت. وبدأت في حنايا المنازل دورة الوساوس والأقاصيص.

تضحك عاتكة. وتحكي نجاة عن أمها التي قضم السرطان أحشاءها.

«كلّهم كانوا يدرون، وهي وحدها لا تدري».

وتستدرك: «كانت تقول: في هذا الوقت كان يشتدُّ في رأسي الصفير».

يقول باسم: «أنا كنت استمع إلى تكتكة الساعة. ما كان رقّاصها يتوقف. أما هم فما كانوا يأبهون».

تقول نجاة: «تعطّلت مذ ماتت أمنا يا باسم».

تقول أمينة: «ليست عاطلة. والحقيقة؛ كفّ والدكم عن تدوير نابضها بالمفتاح.. كان يفعل كل ليلة إلى يوم موتها.. هو ما عاد يفعل. ولم يفعل أحدٌ آخر».

يقول الشيخ رفعت: «ليلكم بارد».

تقول أمينة: «الخوف توأم البرد».

يرد الشيخ: «سبحان الذي لا يخاف».

تقول عاتكة: «اليوم فقط عرفت أن أمينة ابنة خالتكم».

يقول عادل: «متأخراً جداً اكتشفوا المرض.. أخبرنا الطبيب أنها لن تعيش أكثر من ستة أشهر.. أذكر تأوهاتها وصرخاتها.. في ليلتها الأخيرة كانت عيونها غارقة بالدموع».

يدعون لها بالرحمة.

تمسح نجاة دمعة طفرت من عينها وتقول: «لم تفارقها أمينة في نهاراتها لحظة واحدة».

تقول عاتكة: «يبدو أن الحاج اخضرّ قلبه لأمينة منذ ذلك الحين».

يضحك الشيخ رفعت.. يقول عادل بغيظ:

«متى ستتعلمين الحكي؟».

تسألهم أمينة: «ألم تجوعوا؟».

***

«أراد أن يُظهرها الدار الأكبر في البلدة».

«نعم، كتلة إسمنتية ضخمة؛ صلابة وفخامة وأبهة وتعقيد، ولكن من غير سحر».

«وضع في واجهتها مصابيح كثيرة، حتى أنها كانت تبدو من بعيد مثل ثريّا معلّقة.. في أوقات الحروب كنّا نخشى أن تتعرّض لقصف الطائرات».

«سعى دائماً للفت الانتباه».

«أن يكون الأفضل».

«أكان كذلك؟».

«له مثالبه، لكنه ليس سيئاً، وليس مثالياً.. تكوينه خاص».

«تسبّبَ بالإيذاء أيضاً.. في مثل هذه الحالة لا يبالي كثيراً.. ماذا تسمّين هذا؟».

«أنتَ محق.. من غير قصد».

«لستُ واثقاً جداً».

«هو من النمط القديم.. مسكون بهاجس أن الآخرين يعادونه، أو يرومون إغاظته».

«أخَطَرَ لكِ أن تغيّري فيه شيئاً».

«تغيّرت فيه أشياء قليلة.. لا أدري إن كان بسببي، أو بفعل الزمن، أو لأي سبب.. لا أدري».

***

هي تلك الرائحة.. الرائحة القديمة العالقة في الزوايا. في مسامات الأثاث. بين عروق الخشب؛ سريره ودولابه، الكرسي والكوميدينو والمنضدة. في الستارة من قماش المخمل الثقيل اللامع، في فرو

سجادته الفارسية المطعّمة بألوان باردة.. هي رائحة الأشياء المعتقة في زمان الروح.. الرائحة التي عافها منذ ذلك اليوم الشتوي البعيد تباغته بألفة هادئة، تغمره عنوة، تعيده كرّة أخرى إلى مخبأ الأسرار.. رائحة الظلام والبرد والكتب المدرسية، والدفاتر التي ملأها بخواطره المراهقة، وأولى محاولاته في الكتابة المسرحية بالقلم الباركر.. رائحة الحبر الأسود.. رائحة الحدائق البليلة والبساتين والطرقات وبيوت الطين التي تحفُّ بالقصر كحشد من جُمل اعتراضية.. رائحة الرغبات الحارّة والصبوات والأماني.. الرائحة التي في مكان آخر، في يوم آخر، سيشمّها في نحر امرأة وشعرها. امرأة مضمّخة بالفلِّ والنور، اسمها لينا.

كأنه لم يبرح هذه الغرفة.. كأن ذلك الزمن الممتد ثلاثين سنة أو أكثر تُنسخ، وتُمسح بخرقةٍ كغبار على سطح صقيل، من الذاكرة.. كأنه ينكر تبدل الأحوال وتقلّب الصروف. فلا يُعقل أن ما حصل قد حصل كما لو في إغماضة عين ليس إلّا.. يطفئ المصباح، يزيح الستارة ويجلس على الكرسيِّ أمام النافذة المنفتحة على الليل.

«أكان حلماً؟»

كما لو أنه يسأل النجوم.. النجوم التي لم تغادر موضعها أمام النافذة.. أنهكه التفكير بحادثة اختطاف أبيه.. ذلك الكلام كلّه الذي قيل في الساعات التي مرّت.. الحديقة تحتضن ظلمة كالدخان،

على رسلها ترشفها.. هو في ظلمة غرفته، يعاين من النافذة حديقته القديمة، بسيجارة هي الخامسة منذ أقل من ساعة.. البلدة تغفو بلا مصابيح، وثمة صمت، يتهيأ له أنه يتدفق من قلب كوكب صحراوي بعيد، يغمره، يغمر العالم.. فالصمت كما قرأ في مكان ما، ليس من هذا العالم، أو في الأقل ليس من هذا الزمان.. لن يفكر الآن بشيء آخر، بأحدٍ آخر.. لن يكون في باله سوى لينا.

(أعتقدَ أنها فطنة إلى الحدِّ الذي أحسّت باهتمامه بها منذ أول نظرة. غير أنه ما كان واثقاً من استجابتها. وبدا سلوكها محيِّراً له، فسّره بحسب مزاجه ودرجة تشوّشه ومخاوفه.. ستصدمه، في أول لقاء يجلسان فيه معاً لوحدهما في كافتريا الدائرة لمّا تفصح ضاحكةً أنها تقرأ أفكاره، وتلتقط إشارات عن ارتباكه، وتسارع دقات قلبه، وولعه الحارق.. سيتلعثم قليلاً، ويضحك بخجل مفضوح. وسيقرِّر أن يبوح لها كي لا تكتشف مدى ضعفه، لكن اعترافه سيكون ناقصاً بهذا الصدد، وسيعرف أنها تعرف أنه لا يقول من الحقيقة إلا نصفها. وسيشعره هذا بأنها أقوى منه، وتدرك أنها أقوى منه، وأن العلاقة بينهما ستتخذ، لبعض الوقت، مجرى متعثراً مملوءًا بالمصدّات. سيتردد في أن يقول لها؛ «وإذاً، ما رأيكِ»، وستتلقى سؤاله من غير اندهاش، وسيفهم أنها تلقّته، ولن يفهم من البريق المخضرّ العذب الغامض المشعِّ في عينيها بأنها تبادله العاطفة ذاتها. وسيحتاج إلى ستة لقاءات أخرى أو سبعة قبل أن ينطقها صريحةً؛ «أحبكِ يا لينا، أحبكِ».

وسيعجز أن يكمل عبارته، وستكملها هي: «قلها؛ وأتعذّب».. وسيهزُّ رأسه باضطراب بيّن، وستتكسر الحروف على طرف لسانه: «أجل يا لينا، أتعذّب».. ستسأله وكأنها تعمد أن تخضعه لمثل هذا الاختبار العسير؛ إنْ كان يأبه حقاً لتلك المصادفة الأنثربولوجية المزعجة التي جعلت منها أرمنية مسيحية، وجعلت منه مسلماً سنّياً؟. سيجفل، لكنه سيقول؛ هذه من بعض مزالق التاريخ وعمائه..

«وإذاً؟».

«وإذاً، كلانا ابن الطبيعة عينها، وأي شيء آخر لا أهمية له».

«حقا؟».

غير أن عينيه الرطبتين سترغمانها على الابتسام، فتوقف بعبارة مبهجة هذا الانغمار المحرج للانفعالات غير المنضبطة في دخيلته، ولو مؤقتاً: «نحتاج يا باسم إلى كثير من الكلام».. وحينها سيعجز عن القول بأنه ممتن لها، لأنها منحته فرصة لالتقاط الأنفاس.. هنا سيستعيد هدوءه ببطء لذيذ يشاكس شهيقه وهو يراقبها تبتعد بكامل بهاء شعرها القصير المكوّر حول مؤخرة رأسها ورشاقتها المتموِّجة الفارهة.

كم مرةً أعاد تخيّل التفاصيل الدقيقة لذلك النهار القائظ من أوائل الخريف؛ لم يخطر بباله أن يجدها وحدها في الدائرة بعد أن وصلها متأخراً والغضب يتآكله.. سار في شوارع وأزقة فرعية لأكثر

من ساعة، لأن سير المركبات مُنع لسبب مجهول.. لم يسمع صوت انفجار، وحتى الأخبار التي أصغى إليها من جهاز المذياع في شقته قبل خروجه كانت اعتيادية.. هي جاءت مشياً، فمنزلها قريب.. هو فكّر أن يعود أدراجه بعد أن قطع ثلاثة أرباع الطريق، بيد أنه لم يفعل.. لم يأتِ الآخرون، ويبدو أنهم لن يأتوا.. وانتابه شعور كما لو أنها خلوةٌ في الفردوس.. قال في سرِّه؛ هذا القدر من الحظ مفرطٌ وغير معقول.. سألها وهو لا يكاد يخفي سروره: «ماذا هنالك؟».. قالت وقد لاحظت، من نبرة صوته، فرحته بغياب الآخرين: «من يدري؟» وأردفت: «كدت أرجع لولا أنك جئت».

لنصف ساعة ثرثرا معاً عن الطقس، وعن تذبذب حالة الأمن، وعن مسرحيته الجديدة التي لم ينهها بعد، وعن أشياء تافهة أُخر. كانا كأنهما يعبثان مع وقتهما الثمين المقتنص من عشوائية الحياة. وفي لحظة خطر له أنه يتلف هذا الوقت الذي لن يتكرر إلا بمعجزة، بكلام فارغ.. جلس هو على طرف منضدة مكتبه وجلست هي على الأريكة قبالته، واضعة ساقاً على ساق.. طليقة كطائر لا يعلم بأنَّ ثمة أقفاصاً في العالم. جميلة كزهرة نادرة.. كانا من غير اتفاق يرتديان الجينز الأسود، وقميصاهما النصف كم باللون السماوي الفاتح.. أخبرها على حين فجأة أنه معها الآن في الهامش المثالي من الوجود حيث يشعر بالاكتفاء.. قال: «لا شيء آخر أريده من الله»، فبلعت ريقها.. رأى وجهها يحمرّ، وتتململ في قعدتها.. وظنّ أنها لن تعقّب، غير

أنها قالت «أنت مجنون». وضحكت، فألفى نفسه يقوم ويدنو منها.

لم تتحرّك.. جلس على الأريكة إلى جانبها.. صار لصقها ونبضه يتسارع.. أحاطها بذراعه، محاولاً مداراة رعشة أصابعه.. لم تعترض.. ارتاحت رمّانة كتفها في التجويف بين كتفه وصدره، فيما القوس الخلفي لقميصها يترك أعلى ظهرها عارياً.. قرّب أنفه من تحت أذنها وشمّ رائحتها؛ كانت رائحة غامضة حلوة لا تُصدّق، لا يمكن نسيانها؛ رائحة مُرج من العشب والأزهار تلاعبه الشمس والهواء بعد ليلة ماطرة.. رائحة كأنها من بقية أفراح الطفولة.. رائحة غرفته العتيقة وأشيائها.

اخترق أنفه شعرَها الحريري المقصوص، وأمسك برأسه الدوار.. لامست شفتاه جلد رقبتها الشاحب البارد، وأشعرته نعومة زغبها الذهبي بنشوة لم يخبرها مع أية واحدة أخرى ممن التقاهن قبلاً.. وحدس، إذ بدأا معاً يتواصلان خلال ارتجافة روحيهما، بأنه، الآن فقط، حازَ الوضع القدري الصحيح، والملائم تماماً.. تمطّى جسدها.. شهقتْ.. احتوت أصابعه في كفها.. أدارها وجال بنظره في أغوار عينيها.. لم يستطع أن يميّز لونهما، غير أنه راح يشرب إلى درجة الثمل من السيل الفائق للحنان المتفجِّر هناك.. باسَ أنفها واحتضنها بقوّة.. غمره الحضور الكثيف الهائج لصدرها على صدره، ولا يدري كيف أُفلتت منه همسة لافحة، عبرت لاشك طبلة أذنها متدحرجةً كقطرة زئبق على منحدر معدني أملس إلى قيعانها النديّة: «صدقة

لعمرج».

انسلت من بين ذراعيه من غير أن يبدي أي محاولة لإبقائها.. فلحظة هزّت جذعها حرّرها، وتهيأ له أنه ربما تمادى أكثر مما يجب.. وقفت، وقد تورّدت بشرتها، تحدِّق فيه، وهي تعدِّل من وضع قميصها وشعرها.. تمتم:

«أنا آسف»

قالت وصوتها العسليّ الراعش يشلّه:

«أؤمنْ فقط بأنكَ تفعل الصواب»

أمسكت حقيبتها، وخرجت.

ستؤرقه عبارتها الأخيرة، وسيفكّر مليّاً بما تعنيه، محمِّلاً إياها على ألف وجه. وفي تلك الليلة ستتقاذفه تيارات من أحلام غريبة، لن يتذكّر منها، حين يستيقظ صباح اليوم التالي، سوى أنها كانت صوراً وأصداءً هرّبتها عبارة لينا المربِكة تلك.)

اليوم الثاني

دار حول سيارة الشوفروليه الخاصة بأبيه.. مرّ بمحاذاة سيارة الشيخ رفعت القانية اللون، العالية، من نوع هوندا.. كان يجتاز الممر الطويل للمرأب تحت ظل نخلتي التبرزل وقامات النارنج ليرى مَن هذا الذي يقرع الجرس بنفاد صبر.. وهو يفتح الباب الحديدي الثقيل انسابت عجلاته بسلاسة على سكّتها.. فوجئ برجل ستيني ضئيل القدِّ يقف بعربته أمام الباب.. سترته حشيشية اللون فضفاضة، وغطرته التي يلفّها حول رأسه ورقبته عتيقة، بخطوطها السود الحائلة.. دفع الرجل العجوز عربة اليد الخشبية ليُصعدها ربوة المرأب، ولم يقدر، فتوقف وكوّر راحتي يديه ونفخهما.. كانت العربة مملوءة بحاويات المنظفات والزيوت ومعجون الطماطم وعلب الجبن والمربى، وبأكياس الخضار والفاكهة واللحم والرز والبقوليات والمعكرونة والخبز والدجاج المجمّد.. قال الحمّال العجوز:

«أهلاً فريد».

«أنا باسم».

«يا لغبائي، كان يجب أن أعرف من نظارتك ولحيتك أنك باسم، الممثل».

«نعم».

راح باسم يدفع العربة مع العجوز على بلاطات الموزائيك حتى أوصلاها قريبة من باب المطبخ المطلّ على الحديقة، من جهة صفوف شجيرات الورد.. قال العجوز:

«لا نراك في التلفزيون».

«أنا كاتب وممثل مسرحي».

«نعم، أفهم.. مع الجماعة التي تُضحك الناس».

اختلج فم باسم وكأنه بصدد الاعتراض على ما قال الحمّال العجوز بيد أنه سكت.

«كل يوم، بعد كل صلاة، أدعو الله أن يفرِّج عن الحاج إبراهيم ويرجعه لأهله سالماً.. عائلة شريفة ومحترمة لا يجب أن يحصل لها هذا».

«الله كريم».

«أولئك مجرمون أوغاد.. كثيرون تركوا البلدة بسببهم.. أرزاق الناس قُطعت».

«من أرسل هذه الأشياء كلها؟».

«الحاج أبو أمجد، وأعطاني أجرتي أيضاً.. أبو أمجد هو من يتسوّق لكم حاجياتكم من سنوات، وأنا آتي بها بعربتي.. أنت بعيد ولا تدري ماذا يحصل هنا؟».

«نعم».

«ابق بعيداً.. أتمنى أن أشاهد لك مسرحية وأضحك.. أحتاج أن أضحك».

هز باسم رأسه، وقال:

«وبعد؟».

«نأخذ هذه الأشياء لأمينة خانم في المطبخ».

«سأساعدك».

«ابن أصول».

***

حتى مع شمس الساعة العاشرة والربع لم يزد مرتادو سوق البلدة على بضعة أنفار.. وكان من المؤكد أن يلفت غريب مثله الانتباه.. بدا بلحيته النامية ونظارته ذات الإطار المعدنيِ وبنطاله الجينز وسترته بمربعاتها السود والخضر الفاقعة دخيلاً يثير الريبة.. مرّ

قبل وصوله المقهى على محلات البقالة الثلاثة، ودكاني القصابة، ومتاجر المستلزمات المنزلية من غير أن يعاين معروضاتها.. ولم يلوِّح بالسلام لأي من هؤلاء الذين ما برحوا يراقبونه.. فقط ابتسم لطفلين يجلسان على دكّة اسمنتية، وتساءل في سرِّه؛ لماذا هما ليسا في المدرسة الآن؟.

وقف يعاين واجهة المقهى الزجاجية، كأنه يريد التأكد من أنه في المكان الصحيح. انقطعت ثرثرة الرواد المتحلِّقين بجماعات ثلاث صغيرة حول طاولات لعب الدومينو، لمّا دخل وتمتم بالتحية.. ردّوها بصوتٍ أعلى منها.. اتخذ مقعده إلى جانب الحاجز المزجّج المطلّ على درب السوق.. وخلال دقيقة ونصف الدقيقة وضع النادل استكان شاي وقدح ماء على الطاولة العالية المتشققة الخشب أمامه.. واستأنف الجالسون ثرثراتهم ولعبهم.

«أنا أعرفك.. ياه.. فاتت سنوات طويلة.. كنّا معاً في مدرسة النهضة الابتدائية».

تفرّس في ملامح الرجل الواقف قبالته.. كوفيته الحمراء الملفوفة حول رأسه لم تترك سوى دائرة صغيرة من وجهه.

«أنت باسم.. الأستاذ باسم، ابن الحاج إبراهيم».

«نعم، أنا هو».

مدّ الرجل يده.. نهض باسم وصافحه. وكان ما يزال يقبض بقوة على كفٍّ باسم حين قال:

«أنا عبد الرحمن بن شوكت القهوجي. مات أبي وأورثني عمله. كنتُ مع صبري حميد نقلّد عراك الهررة في درس الاجتماعيات.. ألا تتذكر؟».

«نعم.. عراك الهررة.. نعم، أظنّني أتذكّر».

أفلت الرجل يد باسم وجلس إلى جانبه:

«صبري توفي العام الماضي بسرطان القولون».

«الله يرحمه».

«سمعتك في الإذاعة.. حاوروك حول مسرحية أنت مؤلفها عُرضت في بغداد.. قلتُ لهم اسمعوا هذا ابن بلدتنا باسم ابن الحاج إبراهيم، كنتُ معه، في الصف نفسه.. لم يهتموا.. هذه البلدة لا تقدّر أمثالك».

«لم أنجز شيئاً مهماً».

«أنت لا تعرف قيمتك أستاذ باسم.. نحنُ في الزمان الغلط».

«هكذا تجري الأمور».

«اشرب شايك قبل أن يبرد».

يرشف قليلاً من استكانه ويعيده إلى ماعونه الصغير.

«كلنا منزعجون وقلقون بشأن الحاج إبراهيم.. هذه البلدة لم تعد آمنة.. أليست هناك أخبار؟».

«لا شيء».

«قبل أسبوعين قتلوا جميلًا المختار.. وقبله غزوان الصيدلي.. وقتلوا آزاد بن محمود باجلان.. كان محمود رحمه الله فلاحاً في بستان الشيخ عبد المهيمن، لابد من أنك تعرفه.. قتلوا كثيرين، ولا أحد يعرف لماذا».

«للأسف لم أسمع بهذا كله».

«لا بأس، أنت مشغول بعملك».

«البعد، والانقطاع.. القتل بلا سبب الآن في كل مكان».

«كم عدد أولادك؟».

«لم أتزوج».

«آه، لم تتزوج.. أنتم الفنانون لستم بحاجة إلى الزواج.. النساء حولكم كالذباب».

وأطلق ضحكة حييّة، خافتة.

«لا.. ليس لهذا.. مررت بظروف صعبة».

«ظروف؟ نعم، من يدري.. نعلم أن الحاج لا يساعد أبناءه الذين تركوه.. أنت قبلت بمعهد الفنون في سنة ٧٧، بعدما نجحت في الثالث المتوسط.. أذكر هذا لأني رسبت في السنة نفسها والسنة التي تلتها، وطردوني.. قضيت عشر سنين في الجيش.. بعد تخرّجك لم تعد، فقطع الحاج عنك المصروف.. هذه البلدة صغيرة جداً لذلك لا أسرار فيها».

«لست أتكلم عن النقود.. هناك أشياء أعقد».

«حسناً فعلت بهربك من البلدة.. كثيرون فعلوا مثلك، إذ ماذا ننتظر هنا غير الموت.. حين غادرتَ كانت في البلدة مقبرة واحدة.. اليوم عندنا ثلاث.. كل شيء تضاءل هنا إلا المقابر»

«الموت العبثي في مدن البلاد كلها الآن».

«لماذا لم تفكّر بالهجرة».

«سافرت كثيراً».

«حتى بغداد لم أزرها منذ عشر سنين».

«.....».

«ذلك الزمن حين كنّا صغاراً كان جميلاً.. لن يعود.. تغيّر كل شيء».

«أنا آسف، يجب أن أرجع إلى البيت.. انتظر مكالمة، وهاتفي

نسيته في غرفتي».

«لماذا لا أستضيفك في بيتي.. نتغدى معاً».

«شكراً لك.. تسمح لي».

قام وأخرج محفظته من الجيب الخلفي لبنطاله.

«ماذا تفعل يا رجل.. عيب.. شايك واصل».

لم يكن قد سار أكثر من عشر خطوات مبتعداً عن باب المقهى حين هاج الرصاص بكثافة.. لم يخمِّن في أيّة جهة.. رأى متسكعي السوق يركضون، فيما أصحاب الدكاكين يهمّون بإغلاق دكاكينهم ليهربوا.. راح يركض هو الآخر.

وهو يقترب من دار والده الكبيرة مرقت إلى جانبه دورية من عجلات الهمفي الأمريكية، تسير ببطء.. التفت إليه الجندي الأسود الذي يمسك بالمدفع الرشاش وابتسم.. باسم لم يبتسم.

***

يراقب، بقليل من الامتعاض الذي لا يجد له مسوِّغاً واضحاً، حركة أظفارها المصبوغة بالأحمر.. أصابعها وهي تفرك حبات الفستق.. تتفتت قشور الفستق الرقيقة، تسقط في صحن الألمونيوم.. الإناء في حجرها يتموّج مع تراقص ساقيها وهي جالسة.. تلقي بالحبّات المقشّرة الواحدة إثر الأخرى في فمها وتقضمها. باندماج طفولي

تتابع حلقة من كارتون (توم وجيري) على شاشة التلفزيون.. يقول لها: «دعينا نسمع الأخبار».. تقول من غير أن تستجيب لطلبه: «أنت تغرم دائماً بما يسمِّم النفس ويسبِّب القرف».. يلتقط ثمرة يوسفي كبيرة من سلّة الفاكهة.. يشقها نصفين.. يلقي بالقشر على الطاولة، ويأكل.

جيري يستفز توم.. توم يطارد جيري.. بجريهما بين الأغراض يحدثان تخريباً هائلاً.. تأتي ربة المنزل الغاضبة وبيدها عصا المكنسة.. يختبئ الفأر جيري، ويتلقى القط توم ضرباً مبرّحاً. تقهقه عاتكة.. تغص بشظية من حبة فستق، فتسعل، وتدمع عيناها.. تشير لعادل أن يسرع لنجدتها بكأس ماء.. يستمر هو بالتهام ما تبقى من ثمرة اليوسفي.. يمسح فمه بمنديل ورقي.. يقوم ويملأ كأساً من إناء ماء زجاجي موضوع على الطاولة.. وما تزال تسعل.. يرشف قليلا من الكأس قبل أن يناولها لها.. تشرب، وتهدأ شيئاً فشيئاً.. تمسح دموعها براحة يدها.. تقول: «كدت أختنق وأنت لا تبالي». يجلس ويأخذ منها جهاز الريموت كونترول.. تعود هي وتفرك حبّات أخرى من الفستق وتقضمها.

يدخل الشيخ رفعت إلى الصالة بدشداشة رصاصية ثخينة.. حاسر الرأس.. تلمع صلعته تحت ضوء النيون.. يقول: «مساء الخير» ويجلس.. ترد عاتكة بمثلها، ويقول عادل «أهلاً». ويسأل الشيخَ فيما إذا كان يرغب بمسلسل مكسيكي مدبلج.. يقول الشيخ إنه لا يتابع

في التلفزيون سوى بعض قنوات الأخبار والبرامج الدينية.. يضحك عادل.. يثبّت الإشارة على قناة تعرض فيلماً أجنبياً.. تتنقل الكاميرا على طول ساحل رملي مكتظ بمئات الأجساد شبه العارية.. يسأل عادل عمّا يرى الشيخ في مشاهدة مثل هذه اللقطات: «أحلالٌ هي أم حرام؟».. يقول الشيخ: «وما يهمّك من الحلال والحرام طالما لا تؤدي الفرائض؟».. يقول عادل: «وهل يكفي أداء الفرائض يا مولانا كي يدخل المرء الجنة؟». يقول الشيخ: «أتعرف إلى أين ستقودك سخريتك مما هو مقدّس؟». يقول عادل: «لا أعرف تحديداً.. ولكني واثق بأني حيث ما سأكون ستكون هناك قبلي». ويضحك بصخب.. يقوم ويومئ لعاتكة أن تتبعه.. تقول: «وماذا في تلك الغرفة المقرفة؟ هنا على الأقل نتفرج على التلفزيون».. يخرج.. تضع هي ماعون الفستق على الطاولة وتقوم.. تلتفت وتحدِّق في وجه الشيخ.. يطلب منها الشيخ البقاء بإشارة من يده وعينيه.. تتردّد للحظات قبل أن تهزَّ رأسها بتبرّم.. ينهض ويقترب منها.. يهمس:

«ألستِ مشتاقة؟».

«كانت تلك مرّة واحدة.. أولى وأخيرة».

«لا أستطيع نسيانها».

«أنت رجل فاسد».

«وأنتِ، ماذا تكونين؟».

«كانت غلطة لا تتكرر».

«في لحظتها.. أتذكرين؟ قلتِ شيئاً آخر».

«تريد خراب بيوتنا».

«لن يخرب أي بيت.. لن يعرف أحد.. سيظل كلٌ في مكانه».

«لا»

«لا تقولي لا.. الرغبة تؤلمني».

«وما لها امرأتك».

«رغبتي فيكِ».

«شيخ شاذ؟».

«شاذ؟!. لم أجبركِ يومها على شيء.. كنتُ أقترح وتوافقين».

« أي رجل دين أنت؟».

«ربنا يغفر، ثم أنني لستُ رجل دين».

«لا ترفع صوتك.. أنت فضيحة.. البيت لا يخلو».

«لا أقول هنا.. هناك، بعدما نرجع.. تعالي إلى بغداد لأي سبب.. عندي مكان.. المكان نفسه».

«أنت قذر.. أتعرف امرأتك كم أنت قذر؟».

«وزوجكِ.. أيعرف إلى أي حد أنتِ قذرة، رائعة في الفراش؟».

«اجلس.. اجلس.. جاء أحدهم».

مع خروجها، تدخل أمينة الصالة.. يقلِّب الشيخ قوائم قنوات التلفزيون.. يقول:

«الأخبار دائماً سيئة ومقززة».

تقول أمينة: «صدقت.. الأفضل أن أرجع إلى مطبخي لأغسل الصحون».

***

«كانا يتشاجران دوماً.. أنت لم تكن تكترث.. مماحكاتهما السخيفة استمرت لحين ما هاجر فريد.. نجاة تعاطفت مع فريد.. أنت لم تفعل.. بالأحرى كانت تلك الفوضى العائلية خارج مجال اهتمامك.. فسَّرْناه بتراتبية العمر؛ الغيرة التي تنشأ بين الطفل وبين من يليه في الولادة، لكن الأمر كان يتعدى ذلك.. ذات مرّة تضاربوا بالأيدي.. أذكر أنك تدخّلت لتفصل بينهما فتركوا لك عيناً متورِّمة ومزرقّة.. أمك كانت مريضة يومها. في بدايات مرضها.. اعتقدنا أنها مصابة بالسل، وكانت مرمية مثل خرقة في غرفتها.. ولم تكن لها أية سلطة معنوية.. أبوك سلبها هذا الامتياز، وكان يؤثر فريدا عليكم.. ربما لأنه ابنه الأكبر.. لعله رأى فيه نسخة منه، من أحلامه المجهضة..

كان فريد جلفاً، حاد الطباع، أنانياً بشناعة، لكنه كان ذكياً.. في امتحان البكالوريا كان صاحب المجموع الأعلى في قوائم نتائج ثانويات المحافظة بفرعها العلمي.. أرسله أبوك إلى لندن.. وصار مصدر فخره بين أصدقائه وغرمائه.. فريد تفوّق هناك أيضاً، تخرّج وحصل على البورد، وراح يدرِّس في جامعته، وبعد سنوات قليلة جعلوه مدير مستشفى متخصِّص بأمراض الشرايين وجراحة القلب.. هناك تزوّج من طبيبة مسلمة من أصول هندية.. أظنها من كشمير.. بارك أبوك الزواج وتحمّل تكلفته بمبلغ كبير.. أتعرف لماذا أطلق عليه هذا الاسم؟ لأنه كان في بغداد يوم ولادته يشاهد فيلماً لفريد الأطرش وهند رستم في سينما الملك غازي.. حين وصل البلدة وأبلغوه بأن زوجته وضعت صبياً ذكراً، قال دون تردّد؛ اسمه فريد وأنا أبو فريد.. حكى لي هذا كله، وأشياء أخرى كثيرة.. لم يدع تفصيلاً إلا وحكاه لي.. كأنه رغب أن يقبض على الماضي ثانية علّه يغيّره.. هو مثلنا، مثل أيّ أحد.. أراد أن يسير العالم من حوله بشكل آخر.. لا أحد راضٍ عن مصيره.. أجل، أوافقك؛ كأن القدر يسخر من الجميع.. لا يستثني.. كان أبوك في الخمسينات والستينات يذهب، في كل شهر، مرّة واحدة إلى بغداد، في الأقل.. يصطحب أثرياء آخرين من البلدة إلى حيث الوناسة؛ سينمات وملاهٍ وحفلات.. حضر حفلات لعفيفة إسكندر ومائدة نزهت وناظم الغزالي ومحمد القبانجي وسليمة مراد.. كما حضر حفلة لهيام يونس، وكان متردداً في حضور حفلة

لعبد الحليم حافظ بصالة سينما النصر. فضّل عليه فريد الأطرش، غير أنه في النهاية اشترى بطاقة الدخول لأن آخرين كانوا مع حليم؛ محمد قنديل وفايزة أحمد ونجاة الصغيرة، ربما جاء معهم نجوم آخرون إلى العراق. كانت مناسبة ما.. لم يكن أبوك بخيلاً، كان مقتّراً معكم باستثناء فريد.. أظنّه أعطى شيئاً لنجاة فيما بعد.. سمّاها نجاة لأنه كان معجباً بنجاة الصغيرة كذلك. ما كان يثير حنقي بأبيك، وقد أخبرته بهذا، أنه لم يكن عادلاً. أخبرته بهذا وكانت أمك عائشة، وأخبرته حين تزوجته. في المرة الأولى سكت، في الثانية قال أنتِ لا تعرفين شيئاً. أمام الناس كان يفخر بكم جميعا، حتى بعادل؛ «هو رئيس مهندسين، والمعتمد في بلديات المحافظة كلها». نجاة؛ «مديرة مصرف وزوجها الشيخ رفعت، لا أدري ماذا». فريد؛ حدّث ولا حرج.. سمعته ذات مرة وهو يتكلم عنك لضيوفه هنا؛ عن الفنان المسرحي الشهير، المثقف.. أخبرهم بأنك مقرّب من يوسف العاني وخليل شوقي. وإنك الأفضل لولا أن البلاد متخلفة ولا تقدِّر ثرواتها. غير أنه كان غاضباً منكم. ربما باستثناء فريد. لأنكم تركتموه وسكنتم في مدن أخرى. كان غاضباً منك أنت بالذات. لأنك لا تطلب، لا تتوسّل، لا تخابر، لا تبعث برسائل، لا تسأل. فريد كان يفعل أكثر منكم جميعاً. عادل ونجاة كانا يفعلان غالباً. استاء لمّا تزوّج عادل من عاتكة.. لم يرتح لها قط.. أتعرف أين التقى عادل بعاتكة؟ هل حكيا لك؟. بالمصادفة في الطريق بين بغداد وبعقوبة. جلس إلى جانبها

في الحافلة.. انبهر بجمالها، كلّمها. ويبدو أنها استجابت له. ذهب أبوك إلى بعقوبة ليراها وعاد وهو حانق. لا أدري ما الذي أغاظه فيها. قال: من النظرة الأولى كرهتها. لم يساعد في مصاريف الزواج بفلس واحد. تزوّجا واستقرا هناك، في بعقوبة. مرّة واحدة قدما إلى البلدة مع طفلهما الأول كمال. كان عيد الفطر، والذكرى السنوية لوفاة أمّك. في هذه الآونة كنتُ لتوّي مخطوبة لأبيك. بارك له عادل هذه الخطوة، لكنه لم يلن. استقبله بوجه حامض كما يقولون في هذه البلدة. غادرا في اليوم التالي بعدما نغزه أبوك بكلام خادش. سألته عن سبب نفوره من عاتكة. قال؛ هذا النوع من النساء لا يعجبني. ورغب أن يزوِّجك بواحدة من بنات أبي أمجد. اقترح، وطلب منّي أن أخبركَ: إذا وافق باسم أن يتزوجها سأشتري له بيتاً في بغداد وأغرقه بالفلوس.. اتصلت بك أنا، أتذكر.. رفضت».

***

وصل أبو أمجد قبل الرابعة بدقائق:

«لو يحسموا أمرهم اليوم».

قالت أمينة وهي تضع صينية الشاي والكعك على الطاولة أمامه:

«الحاج على بالي.. كيف يا ترى صارت حالته؟. ومن أين سيتدبّر حبوب الضغط؟»

قال عادل:

«لو كنت في مكانهم لفكّرت بصيدلية وقسم طبي خاص».

قالت عاتكة ضاحكة:

«الحمد لله أنّك لست معهم».

غمس أبو أمجد قطعة صغيرة من الكعك في كأس الشاي وأكلها.. رشف قليلاً من السائل الساخن، وأشاد بطريقة أمينة في إعداده.. قال:

«الآن مرّت خمس دقائق.. عينوا وقت الاتصال بين الرابعة والرابعة والنصف من كل يوم».

سألت عاتكة: «متى؟».

«اليوم، خابروني بعد صلاة الظهر».

«آه.. يعرفون مكانتك عند الحاج، ورقمك عندهم».

«رقمي في موبايل الحاج، ومنه يتصلون».

«ألم يقولوا شيئاً آخر؟».

«أتعتقدين بأني سأخفي عنكم أيّ شيء مهم؟».

«وما هو الشيء غير المهم الذي قالوه؟».

«لم يقولوا شيئاً آخر ست عاتكة.. فقط حدّدوا الموعد».

رنّ الهاتف وانقطع قبل أن يلمس أبو أمجد زر الاتصال.. رن مرّتين أخريين.. في الرنّة الأخيرة كان أبو أمجد سريعاً فضغط على الزر قبل توقّف الرنين.. لكن مَن في الطرف الثاني أغلق الخط.. قال:

«هم يلعبون».

في الخامسة إلا عشرين دقيقة نهض ليغادر:

«لن يعاودوا الاتصال اليوم.. ربما غداً».

***

«لم نفهم منهم أي شيء».

«إنهم يراوغون.. عاتكة تظن أنني ضالعة في اللعبة».

«لا أستسيغ هذه العاتكة، كأنها كأس سم.. ما هذا الصوت؟».

«هو الرعد.. رعد البساتين بعد منتصف الليل.. كانت هذه عبارتك».

«الساعة الآن هي الحادية عشرة وعشر دقائق».

«ما تقوله الساعة، أحياناً، لا يهم».

«عندكِ حق.. كنت أتصوّر في مراهقتي أن الليل لا ينتمي إلى الزمن الاعتيادي.. كانت هناك أضواء البروق التي تتكسر على الستارة، والخوف.. زمن الخوف شيء مختلف».

«لم أعرفك خائفاً قط».

«أظن لأنني أخاف أكثر من المعتاد».

«لا.. حين كنت ألاعبكَ وأرميك إلى الأعلى وعمرك ثلاث سنوات.. أنت لا تتذكر».

«أتذكّر ثوبكِ الأحمر، وكركراتكِ.. أتذكّر قطّة برأس كبير، وأتذكّر أمي.. لا أتذكّر ملامحها، كيف كانت، في ذلك الوقت، بدقة».

«كنت تكركر أنت الآخر.. وتتسلّق شجرة التوت وأنت في الرابعة أو الخامسة».

«أنا فقط ومبكراً امتلكت قدرة السيطرة على الخوف وإخفائه، لعلي أخاف أكثر منكم جميعاً».

«انظر.. المنظر القديم».

«أرى اللوحة التي تتشكل.. شكرا لهذه الشموع».

«أعرف مزاجك.. ربما أعرفك أكثر من أي شخص آخر».

«اسمعي.. أزيز المطر يشعرني بالأمان».

«أزيز المطر؟ أنت تستخدم كلمات في غير محلها.. لماذا تضحك؟».

«كل ما حولنا يا أمينة كوميديا سوداء».

«لهذا لم تتزوج.. ولن..».

«سافرت كثيراً».

«تعرّفتَ على نساء، ونساء.. ذات مرّة قرأت في أوراقك وأنت بعد في الثانوية؛ العالم امرأة، أو هي؛ الحياة امرأة».

«أحببت، قبل سنوات، واحدة أوكرانية.. امرأة كل ما فيها يشعّ».

«واحدة فقط!».

«كنّا نتفاهم بالإشارات».

«وتفهمها؟».

«فهمت أنها أحبّتني.. ربما لم تحبّني أيّة امرأة أخرى مثلها.. فهمتها أعمق مما لو كنا نمتلك لغة حكي مشتركة».

«تجعلني أشعر بالغيرة.. أتدري إلى أي حدٍّ أنت غريب؟».

«أنتِ أيضاً غريبة يا أمينة.. لا تشبهين أياً ممن عرفت».

«حتى تلك الأوكرانية الخرساء».

«لم تكن خرساء إلا بقدر ما كنت أنا أخرس نسبةً لها.. بجد، أنتِ غريبة بطريقتكِ».

«لكني تزوّجت في النهاية رجلاً يكبرني باثنين وعشرين عاماً».

«هذا يؤكد ما قلت.. امرأة المفاجآت.. صُدمت ولم أقع على

تفسير».

«ليس على وفق المنطق وحده نتصرف».

«أنتِ على حق، هناك الجنون أيضاً».

«وأشياء أخرى».

«الحلم.. الخيال».

«هه.. والكائن الآخر».

«ماذا تقصدين؟».

«الذي فيك.. توأمك في الداخل.. أنت تخاف وتتردّد، هو لا.. أنت تحسب بالعقل، هو يجازف».

«آخركِ.. أنتِ تؤمنين بهذا».

«المشكلة حين يكون أقوى منك».

«نعم... أما زال الغجر يمرّون بالبلدة؟».

«لم يجيئوا منذ زمن بعيد.. كنّا نحسدهم».

«حمير.. مئات من الحمير.. وخيام، وأسنان الذهب، وقراءة الكف.. أتمنى واحدة غجرية تطلع الآن وتقرأ كفّي».

«أنت تمزح.. لا تؤمن بتلك الخزعبلات».

«لو أصادف الآن غجرية تقرأ الكف، سأمدُّ لها يدي.. لا يتعلّق الأمر بالإيمان، بل.. لا أدري بم».

« بالكائن الآخر.. لا تضحك بصوتٍ عالٍ.. استكان شاي آخر؟».

«آه، لم لا؟. ما دمنا سندخن سيجارة أخرى».

***

«ما تزال معه»

«هي مثل أمه»

«مثل خالته..هههههه»

«تفكّرين بطريقة بغيضة.. هكذا أنتِ دوما؛ تظنّين الآخرين سيئي النيّة».

«لأن الأمر كذلك.. هو كذلك في الغالب».

«ستمطر.. لا أحب صوت الرعد.. هنا بخاصة، وفي الليل».

«ما جرى مهزلة.. أشكُّ بهذا كله».

«في طفولتي كنت أختبئ تحت اللحاف وأنا أرتجف.. كان يخيّل لي أن مطر الليل يوقظ كائنات مخيفة».

«ما معنى؛ هذا اختبارٌ لكم؟. بم يختبروننا؟. يخطفون شخصاً، ويطلبون حضورنا، ويتصلون، ومن ثم يخبروننا بسخافات. واليوم لم

يتّصلوا حتى».

«يريدون أن يتلاعبوا بنا».

«من هم؟. إن كانوا من الجماعة حقاً فلا أعتقد أنهم يمتلكون وقتاً يبدِّدونه هكذا».

«على العكس.. يمتلكون الوقت كله.. ماذا لديهم؟. هه».

«أتراهم سيقتلونه؟».

«مرّات عديدة سألتِ هذا السؤال.. كأنني في أدمغتهم الحقيرة».

«ربما كان أحدهم خلف الشباك ويتنصّت».

«يتسلق سلّماً ويقف على درجته الأخيرة في المطر ليستمع إلى تفاهات».

«أنت لا تحتسب لأي شيء».

«لأن لا شيء يستحق أن نحتسب له»

«لو كنّا نسمع ما يقولان الآن لتوضّحت المشكلة».

«لماذا أطفأتِ الفانوس؟».

«أتشعر بالبرد؟. اقترب».

«أشعر بالقرف».

«تكلّم معهم أنت غداً بدلاً من أبي أمجد».

«ماذا عن باسم؟. مثقف.. يكتب مسرحيات ويمثّل».

«وماذا لو كان هو مؤلف هذه المسرحية؟. يجب أن تكون على خشبة المسرح لتفهم».

«الحمد لله لأنكِ لا تشتغلين في السياسة».

«لكان حال البلد أفضل الآن.. لا تضحك».

«هل اتصلتِ بأختكِ سهيلة بشأن الأولاد؟».

***

باسترخاء يقظ يقف أمام النافذة.. بين أصابعه كأسٌ من السائل الذهبي، هي الأولى، ربما، التي تُشرب في هذه الدار.. كان قد جلب معه قنينة كاملة من الويسكي، نوع (تشيفاز)، أخفاها في حقيبته.. لا خمور في البلدة كما توقّع، بعد احتلالها المزدوج من قبل الأميركان وأصحاب الفكر المتشدد.. منذ ساعة وهو يقلّب في رأسه حكاية اختطاف أبيه، وتفلت منه الصورة.. يسترجع دقائق ما قيل، وما يتخيّل، وما هو منطقي، وما هو غير ذلك، ولا يقع على إجابة مقنعة.. متعب في تيهه، يشرب ثمالة كأسه ويأتي على ما تبقى من سيجارة تركها على حافة مرمدةٍ أسفل النافذة.. يأكل حبتي فستق يخرجهما من جيب بيجامته.. يمشي نحو الكوميدينو ليملأ كأسه ثانية.. علبة

السجائر فارغة.. لا يعثر على علبة أخرى.. يعود لوقفته أمام النافذة.. يرنُّ صوتها مخلوطاً بالضحك كما لو أنها واقفة خلفه حتى ليتهيأ له أنه لو التفت سيراها، وتقول له؛ «أتمنى أن يضرب الجفاف مزارع التبغ كلها».. وفي التوِّ يتراجع ويستدير، ثملاً قليلاً، صاحياً كحيوان يستشعر الأمان في ظلِّ كائن يألفه...

(مرّتين خرجا معاً.. الأولى في ظهيرة باردة تعبث بها ريح شمالية غربية، تلسع الوجوه بذرات الغبار. تطيّر الأوراق وأكياس النايلون وكلَّ شيء قابل للتحليق.. ريح مزعجة، تدور، تثير دوّامات صغيرة مشوِّشة للحواس. لكنه كان فرحاً بصحبتها، وحذراً أيضاً.. خشي أن يصدر منه ما يمنحها انطباعاً بأنه قليل لياقة في السلوك مع السيّدات.. انتقى كلماته باحتراس شديد، ونغَّمها إلى الحد الذي ظهر عليه شيء من الافتعال.. في مطعم نصف راق بشارع النضال سألها عمّا ترغب أن تأكل.. قالت وكأنّها تختبره، أو تداري خجلاً كأية أنثى شرقية تخرج مع شاب في موعدٍ أول، بأنها ستقبل بأي شيء يطلبه هو.. قال؛ «ما رأيكِ بالدجاج المشوي على الفحم، مع مقبِّلات».. «عال».. أكل على مهل، بفم مسدود، حريصاً على تجنب إصدار أي صوت.. وكانت أسرع منه، تمضغُ شرائح الدجاج بشهية، وفي عينيها لمعان أخضر وفير.. وقالت بمرح إن كان يعاني من التهاب في فمه.. وضحكا..

أحسّ كيف تتصرّف بتلقائية وثقة أكثر منه.. وفي كافتريا يقدِّم قهوة

لذيذة تحدّثت عن أبيها المصرفي العتيد الذي بقوا يستعينون به لتنظيم بعض حساباتهم المعقدة حتى بعد إحالته على التقاعد.. الأب الذي ستقضي عليه سكتة دماغية قبل مرور شهرين على انتحار ابنه..

رغب أن يعرف لم يقدِم شاب تخرّج لتوّه في كلية الهندسة على إنهاء حياته.. بيد أنه فضّل السكوت كي لا يحرجها.. وهي، ربما كانت تخفي سرّاً عائلياً، أو أنها ببساطة لا تعرف القصة كلها.. لم تضف كلمة أخرى عن واقعة تلك الليلة المشؤومة حيث قطع الأخ شريانه بموسى ونزف حتى سكت قلبه إلى الأبد قبل إيصاله إلى المستشفى.. قالت إن معظم أقربائها خرجوا إلى المهاجر متوزعين بين ثلاث قارات (أمريكا الشمالية، وأوروبا، وأستراليا).. وأمها متردِّدة، كما أختها المقعدة، غير أنها وحدها لا ترغب بالضياع في المنافي الموحشة كما تسمّيها.

هو لم يحكِ عن عائلته.. حكى عن محاولة اختطافه في الـ ٢٠٠٧ من قبل مجموعة مسلحة: «كانوا ينتظرون في مدخل العمارة.. اتصل بي جارٌ لي، وقال؛ جد لك مكاناً تختبئ فيه حتى يفرجها الله.. ولولا تلك المخابرة لانتهيت جثة تتعفن في ضاحية من بغداد.. تساءلتُ؛ كيف عرف ذلك الجار أنهم يقصدونني أنا، وليس شخصاً غيري.. سألته لمّا عادت الأمور طبيعية بعد أشهر.. قال: «كنت أعرف أنك الوحيد في العمارة من طائفة أخرى».. المفارقة أنني اختبأت عند صديق أعزب هو أيضاً من الطائفة الأخرى. طوال ثلاثة أشهر وعشرين

يوماً لم أخرج من شقته في منطقة الحبيبية إلا في مرّات قليلة.. كان بيت أهله قريباً.. كانت أمه العجوز تأتي بين الوقت والآخر لتطبخ لنا وتغسل ملابسنا وتعيد ترتيب ما خلّفنا من فوضى.. وتدعو ربها أن ينتقم من أولئك الذين لا يخافون الله ويقتلون الأبرياء.. الاقتتال الطائفي صنعة سياسة حقيرة يا لينا».

هزّت رأسها ولم تعلّق.. حدس أنها لا تحب الخوض في السياسة، لاسيما في أثناء خروجها بموعد منكّهٍ بالغرام، أو ما يشبهه.. وبحث في رأسه عن جملةٍ يمكنها أن تغيّر مسار الكلام فأخفق.. فوجئ بسؤالٍ أضحكه، وعدّه ذكياً: «مع كم واحدة تناولت طعامك في هذا المطعم». أردفتها بكركرة رائقة عذبة وأكملت: «أو في أي مطعم».. قال، ولا يدري كيف فكّر هكذا: «هذه هي المرّة الوحيدة.. وليست الوحيدة».. «حزورة؟».. «لا.. ليست المرة الوحيدة لأنني سبق وأن أكلت مع أخريات في مطاعم كثيرة.. غير أنها المرّة الوحيدة وأنا مغمور بهذا الإحساس العجيب».. «إحساس عجيب!».. «الإحساس بأنني مع..... لا أدري كيف أقولها».. قلها».. «أنتِ تعرفين».. «هه».. «إحساس بالتناغم الكلي مع العالم.. إحساس بأنني مع توأم روحي».. «أنت تعرق.. ولسنا في الصيف» وأطلقت ضحكة خلّابة.

ستكون إضافة حرف آخر غباءً.

موعد المرّة الثانية كان أكثر كمالاً.. كانت ظهيرة دافئة من أواخر

الشتاء.. ألفا نفسيهما يمشيان في أزقة شبه خالية لحيٍّ بورجوازي أنيق بُني قبل نصف قرن.. كانا مفضوحين لمن ينظر إليهما بفضول، كأي ذكرٍ وأنثى يتماسان في سيرهما، ويتهامسان.. مرّا بمتنزه صغير خالٍ من البشر.. ما كانا يعرفان أين هما بين طرقات المدينة.. دلفا بين شجيرات الدفلى والجوري.. العشب بخضرته الغامقة كان كثيفاً، عالياً.. وجدا مقعداً خشبياً شبه مخفي بين أجمة من أغصان الآس المتعاشقة، غير المقصوصة.. نظّفا ألواح الخشب بمناديل ورقية أخرجتها هي من حقيبتها وجلسا متقاربين.. راحت أربع فاختات تلتقط طعامها على حافة ساقية رطبة. ومرقت من أمامهما بعض من عصافير الدوري المهتاجة. وسمعا تغريد عندليب، لم يبصراه.. تبادلا كلمات قليلة قبل أن يدنو منها ليسرق قبلته الأولى.. أذعنت له بافتتانٍ، ووله حار.. كان لريقها على لسانه وشفتيه طعم فواكه غريبة، وأثر النبيذ.. من ثم أطال تحديقته في عينيها، كما لو أنه في شرفةٍ يطل على الفردوس.. مع ست قُبلٍ أخرى بدا أن الحياة تختلج بين ساعديه، تعطيه أبهى ما عندها، وتعوِّضه، دفعة واحدة، وبسخاء، عن تلكم الخسارات كلها؛ خساراته التي لا تُحصى.. كانت للينا، تحت شمس بغداد، وهجٌ يعدُ بالمعجزات.. فكّر باحتمال أن يكون عالقاً في حلم الآن، ليس إلّا.. لكن تفكيره في استدراكٍ نبيهٍ طمأنه بأن لا حلم يُرى مع هذا القدر المدوِّخ من وابل الضوء القزحي البرّاق.

أمضيا ساعة من تلك التي تعلق على صفحة الذاكرة كمنحوتة

صخرية على صدر جبل.. بوغتا بعاشقين أكثر شباباً يقتحمان عليهما خلوتهما اللذيذة.. ابتسم الأربعة دفعة واحدة.. هو وهي، والشاب وصديقته.. اتسعت ابتساماتهم.. قاما؛ هو ولينا، من غير أن ينطقا بكلمة.. وجلس الشاب والشابة على المقعد الخشبي عينه، حيث كانا هما يجلسان، ولم ينطقا كذلك.. فقط بقيت تتخايل في فضاء الحديقة أطياف ابتسام.

رجعا إلى شارع فرعي عرف أنه ينتهي في قلب سوق الكرادة داخل.. وحين باتا قريبين من منزلها انتابه شعور بأنها نصفه الذي لا بديل له. وهذا بدل أن يمنحه الرضا والراحة تركه حزيناً.. حزيناً كما لم يكن من قبل).

الآن هو حزين مع كأسه الثالثة، فيما حديقة مراهقته القديمة، تواجه عربدة الريح، والمطر الذي يعاود السقوط.

***

فزّ من نومه.. كانت الصرخة قصيرة، حادة.. ظنَّ أنها انفلتت من فلك الأحلام.. وعاود إغماض عينيه.. في رأسه خيط صداع، ربما بسبب كؤوس الويسكي التي كرعها قبل أن يغفو.. سمع دبيب أرجل خارج غرفته، ولغطاً خافتاً.. وعاد يفكر بالصرخة.. خرج من مكمن الدفء تحت غطائه، وفتح الباب.. وجدهم في الصالة وعاتكة تبكي.. قالت:

«سيذبحوننا».

قالت أمينة:

«لن يذبحكِ أحد».

قال عادل:

«ربما تهيأ لكِ».

«كانوا هناك، أكثر من عشرة، واقفين تحت فحل التوت».

«وما الذي جعلكِ تنظرين من النافذة في ساعة كهذه؟».

رفع باسم بصره إلى الساعة المتوقفة ذات الميناء الأسود، فيما عاتكة تشهق.. قالت بنبرة مخنوقة:

«سمعت صوتاً».

سأل باسم فيما إذا كان هناك من رآهم من قبل.. قالت أمينة:

«لم أرهم، لكنهم، مثلما يقول الجميع، يتنقلون بين البساتين».

اليوم الثالث

خلف نافذة الصالة تنوح الريح.. يتكسّر ضوء النهار.. الأشجار توشك على التقصّف.. السماء خالية.. تتناول عاتكة من سلّة الخوص الموضوعة جوار جهاز التلفزيون، فوق الكوميدينو، برتقالة.. تمسك بسكينة.. تجلس إلى جانب نجاة على الأريكة وتشرع بتقشير برتقالتها.. تقترح أن تشغّل نجاة التلفزيون فتفطن إلى أن الكهرباء مقطوعة فتضحك.. تقول إنها كانت الفتاة الأكثر إثارة وفتنة في مهرجان الحمضيات قبل أن تتزوج.. تسألها نجاة عن سبب عدم انتخابها، إذن، ملكة جمال البرتقال يومها.. مع صوت نجاة المنغّم تستشعر رشقة من الرذاذ الساخر على وجهها فتفكّر أن تردّ الصاع بأثقل منه.. تقول:

«لم أشترك في المسابقة حبيبتي ، لكن لا يغيب عنك أن امرأة بجمالي حين تكون في أي مكان لابد من أن تجذب أنظار الرجال، مثل الذباب على قطعة حلوى».

تقوم نجاة وتأخذ تفاحة من سلّة الفاكهة مع سكينة وتعود لتجلس.. تقول:

«هناك أشياء أخرى غير الحلوى يحط عليها الذباب».

تعض عاتكة شفتها السفلى.. تركِّز عينيها في ما وراء النافذة، في منظر الأشجار التي تتلاعب بها الريح.. تقول:

«صحيح حبيبتي.. لكن الذباب أيضاً لها ذائقة وتعرف كيف تفرِّق بين الحلوى والشيء الآخر».

تقتطع نجاة شريحة صغيرة من التفاح وتأكلها.. تقول وما تزال تلوك شريحة التفاح:

«ما يحصل أن ذائقة الذباب العاطلة تقودها إلى الشيء الآخر، متوهِّمة أن هذا الشيء الآخر قطعة حلوى».

وتضحك.. تَمضغ عاتكة شريحة من البرتقال.. تقول:

«غلطانة حبيبتي.. أثبتت التجارب أن حاسة ذوق الحشرات...».

تقطع كلامها حين يدخل الشيخ رفعت مع باسم الصالة.. يسأل الشيخ:

«أكملي.. ماذا أثبتت التجارب بشأن حاسة ذوق الحشرات؟».

تقول نجاة:

«كنّا نتحدث عن الذباب إذ يُخيّر بين قطعة حلوى، وشيء آخر، على أيهما يحط».

يقول الشيخ:

«آ.. شيء آخر.. يا لكيدكن».

ويضحك.. يقول باسم:

«عجيبة والله.. امرأتان عصريتان متعلمتان لم تجدا غير هذا الموضوع التافه لتخوضا فيه».

يقول الشيخ رفعت:

«لا، لا.. يبدو أنك يا باسم لست ضليعاً كفايةً بأحوال النساء».

يقهقه.. يمشي باسم نحو النافذة ويقول:

«انظر لثمار النارنج الساقطة على الأرض.. أي صباح معكِّرٍ للمزاج هذا».

***

«من يصنع القواعد يا ترى؟».

«هم».

«تقولها بثقة.. أترى لهم وجوداً حقيقيا؟».

«والمقصد؟».

«إنهم مصنوعون.. نتاج عرضي للعالم الافتراضي».

«الخطف ليس شيئاً افتراضياً».

«إن كانت حقيقة العملية؛ الخطف حقاً».

«أنت تشوّشني».

«لأنني أنا الآخر مشوّش، ولا أدري.. هذا الذي يجري له هدف واحد وهو أن نبقى لا ندري».

«لماذا؟ أمن أجل أن يتآكلنا القلق، أن ننام ليلنا خائفين؟».

«الخوف والقلق وسيلة التحكّم الفضلى عبر العصور».

«لعلك تتوهم، هذه ليست مسرحية تؤدى على خشبة».

«ربما هي كذلك، لكنها على أية حال ليست خطبة مكرّرة على منبر».

«خيالك.. آه، من خيالك».

«البلايا تحدث دوماً لان في راس أحدهم خيالًا متورمًا».

«كنت أظن أنكم، أقصد الفنانين، تقدّسون الخيال».

«أجل، نقدّسه ونخشاه.. الخشية من أولئك المهووسين الذين يعتقدون بأنهم قادرون على إخضاع العالم».

«تعني السلطة».

«أجل السلطة.. نزعة السلطة بوصفها الغريزة الأخطر.. نربّيها

ونحن لا ندرك أننا نتسبب بأعاصير وزلازل».

«أعاصير وزلازل؟».

«ما زلت أتحرّك في حقل المجاز.. لِمَ تضحك؟».

«ألستم أنتم، من تنمّون، على مسارحكم هذه الحماقات؟».

«لا يا شيخ.. ما نفعله هو أننا نحاول تقوية المناعة بجرعة مخففة أو ميتة من المرض نفسه.. تماماً كما يفعل الطب مع الجدري، ومع الطاعون».

«الفن؟ هه.. وهذا العنف المفرط في أعمال الفن.. هذه السخافات كلها».

«أوافقك الرأي.. الفن الآن منطقة محتلّة.. الجزء الأكبر من قارة الفن مغتصبة».

«ستقول لي؛ إنك مع أمثالك تشكّلون جيوب المقاومة في تلك القارة».

«هذا ما أتمناه».

«أشم رائحة يأس».

«أحياناً يغشي السواد روحي»

«هه، يا الله.. تتحدث عن الروح».

«كما أفهمها، لا كما تفهمها أنت».

«تظن نفسك تفهمها.. هههههههه.. تريد أن تقول لي؛ ولهذا هناك الموسيقى والمسرح والشعر واللوحة، وماذا أيضاً؟ هههههه».

«نعم، بالضد من الجشع والنفاق والكذب والفصام، وماذا أيضا؟».

«تراها ساحة حرب إذاً، وتصفية حسابات».

«أراها ساحة تنقية وتطهّر وخلاص».

«أنت تُضحكني، لماذا لا تعترف أنكم لستم سوى باعة أوهام».

«وماذا عنكم أنتم؟ ماذا عن الكلام عينه منذ ألف سنة.. في الأقل نحن لا نهدِّد الناس باسم الحقيقة».

«لأنكم لم تقبضوا عليها، ولذا لستم أقوياء بما فيه الكفاية».

«أنتم سجنتم ما تظنونه الحقيقة، فيما نحن ما زلنا نبحث عنها».

«هههههههه.. أنت مضحك يا صاح.. حتى الحمقى الذين يصدِّقونكم يبقون في حيرة من أمرهم.. لستم أقوياء.. هههههههههه».

«غلبتني، آه، لسنا أقوياء، لا أحد يريد أن يصدّق أن الحقيقة زلقة معتمة خفية غامضة عمياء».

«لحظة، لحظة، لحظة، عمّ تتحدث يا هذا؟ زلقة، معتمة، عمياء

هههههههههههههههههه».

«انظر، إلى أين توجِّهك بوصلة عقلك دائماً، هههههههههههههههههه».

«هههههههههههههههههه».

***

«ما يبقيني هنا هو الفضول ليس إلا».

«الفضول، كأنك تراها مسرحية».

«بالله عليكِ، أهي شيء آخر؟».

«لسنا في ذهنك، إذاً، سوى شخصيات محتملة».

«مؤكدة، بل هي مؤكدة»

«أنت تُضحكني».

«أنا على العكس، أشعر وكأنني سأنفجر بالبكاء في أية لحظة».

«أهناك شيئًا تعرفه، ولا نعرفه؟»

«هناك شيئًا، لا نعرفه جميعاً، ومهمتي البحث عنه».

«لعله لا يوجد أبداً، لعلك تضيّع وقتك».

«البحث ليس مضيعة للوقت، هناك نتعلم شيئاً، حتى مع الفشل

والخيبة».

«مذ كنا صغاراً كنت أشفق عليك.. أقول، ما له يترك المتاح، ويحلم بالمستحيل.. تعاف نفسه الطعام الطيب ويتخيل منّاً وسلوى لا وجود لهما على كوكب الأرض».

«في هذا أنتِ على حق.. ولكن ماذا أفعل؟ تركيبتي الكيمياوية هكذا.. عجينتي هكذا.. خُبزت هكذا.. إنها التجربة».

«أتفكر أحياناً بأمي.. أتأخذكَ ذكرياتكَ إليها؟».

«لروحها السلام».

«كانت تقول؛ هو الوحيد الذي أخاف عليه.. أخاف أن يضيع».

«حدسها كان صائباً.. أضيع.. آه.. إن كان هناك فردوس فهي فيه الآن».

«كانت راضية».

«لا، لم تكن.. كانت فقط لا تريد أن يتهدّم البيت على رؤوسنا.. كانت تثبِّت طابوقة سنمار في موضعها جيداً».

«ماذا؟ طابوقة سنمار؟.».

«سنمار هذا كان مهندساً، بنى قصراً للنعمان بن المنذر، جعل فيه طابوقة إن سحبتِها انهار البناء كله.. ولكي يطمئنّ النعمان إلى أن لا

أحد سوف يعلم بموضع الطابوقة ألقى سنمار من فوق القصر وقتله».

«أترى أن أبي فعل الشيء نفسه؟».

«نعم، لكنه لم يكن ذكياً مثل المنذر.. ما فهم أن أمي هي تلك الطابوقة، وحين ماتت..».

«.....»

«سكتِّ.. أنا نفسي، حين تهيأت لي هذه الصورة، للوهلة الأولى، شعرت بالرعب.. ما لكِ؟ لِم البكاء؟».

***

تُريه صورة قُرِضَ جزء من حافتها العليا.. صورة بالأسود والأبيض، على سطحها تكسّرات ولطخة صفراء؛ شابة في العشرين، يداها اللتان تنشرهما حول أكتاف الصبيين إلى يمينها وشمالها عاريتان.. صبي في العاشرة ببنطال قصير وقميص نصف كم، أبيض، ملامحه جدّية ذاهلة.. وصبية في الثانية عشرة، حيية، رقيقة، تغالب ابتسامة.. رداؤها المملوء بأزهار صغيرة، يبرز خصرها الدقيق، وبالكاد يصل إلى ركبتيها.

يقول: «في نظرتكِ وهج غريب».

تقول: «هو الذي التقطها».

يقول، وعيناه تتسعان: «آه، لست أذكر».

تسحب صورة ثانية من علبتها القصديرية الملوّنة؛ الصبي ذاته بملامح دقيقة وشعر طويل، يرتدي بيجاما من قماش البازة المقلّمة، ونعالًا من البلاستيك.. يقف بصلابة جامدة إلى جانب جذع نخلة لا يظهر أعلاها، وخلفهما حائط طيني واطئ.

يقول ضاحكاً: «كانت السماء أوسع وأشد زرقة».

لا تعقّب.. تكتفي بابتسامة حزينة، وتعطيه صورة ثالثة؛ فتاة العشرين تجلس على المقعد الخشبي لأرجوحة معلّقة بين شجرتي سدر وتين.. تبدو كأنها على وشك الانطلاق إلى الأعلى، فيما الصبي ذو العشرة أعوام يمسك بواحد من الحبلين ويبتسم.

يقول: «يخيل لي وكأن فراغاً مريعاً بين هذه الصورة والآن.. هباء، ولا شيء آخر».

تقول: «الصور القديمة تخبرنا عمّا خسرنا».

يزفر، يعيد الصور الثلاث إلى العلبة التي تمسكها، ويقول: «كفاية».

تقول: «أرضى أن أبادل ما تبقى من عمري بذلك الصيف».

يغمض عينيه، فتهمس: «الحياة ظالمة».

يفتح عينيه ويقول: «من حسن حظنا أننا، يومها، لم نكن نرى الهَوْل».

في الظل الكثيف يعتمُّ الأخضر، وتتمادى ضجّة العصافير.. تباغتُ نحولَهُ رعشة التذاذ حالما يضع قدميه في ماء الجدول.. يقهقه ويصيح: «بارد، بارد».. يغمره الماء حتى بطنه، ويعجب لأنه لم يتلقَ رداً.. يتلفت بوجل.. عيناه تبحثان في الشقوق، بين الأغصان: «أين راحت؟».. وإذ يخطو في الماء نحو الضفة تقفز وراءه محدثة طرطشة عالية.. تحضنه وترفعه ساحبةً إياه إلى وسط الجدول.. يحس بحرارة صدرها على جلد ظهره.. ينتفض جسمه الرفيع، ويتوسل إليها: «دعيني».. تفلته فيقع على وجهه في الماء.. يختنق، يُخرج رأسه.. يسعل وعيناه تدمعان، وهي تضحك، تضحك: «عليك تعلّم السباحة، وأنْ لا تخف»، وتضحك.. يسعل ويحدجها بغضب:

«لماذا فعلتِ هذا؟».

«يا خوّاف».

والعصافير تمعن في الضجيج.. ويلتصق بجسمها رداؤها الداخلي الوردي الشفاف، وهي تعوم، ومن ثم تقف والماء يصل إلى سرّتها.. استدارة نهديها تشعل فيه جمرة ما.. هذه اللسعة لم يخبرها من قبل.. ومع تحديقته السريعة بنتوء حلمتيها تهيج رائحة النباتات.. تدفعه ضاحكةً: «اسبح، تعلّم». وتستدرك: «أنظر كيف أفعل.. حرّك يديك.. هكذا، ورجليك.. تخيل نفسك سمكة.. أبقِ رأسك فوق سطح الماء.. واقطع نفسك حين تغوص فيه.. تعلّم».

بعد عشر دقائق لن يعود الماء بارداً.. بعد ثلث ساعة يكاد يسبح بقليل من البراعة.. بعد ثلاثة أرباع الساعة يتركان الجدول:

«لا تنظر إلى جسمي هكذا».

«أنا لا أنظر إلى جسمكِ».

«ما لك؟.. ارفع عينيك.. أمزح معك».

«تسبحين بشكلٍ جيد».

تلبس ثوبها:

«سنجلس على الصخرة، في الخلاء خلف القصب، لنتجفف.. هذا إذا لم يكن هناك وغدٌ متطفل».

تقول: «ذلك الصيف، والجدول.. كان المشمش والخوخ ينضجان، حين علّمتك السباحة».

سيفتح فمه نصف فتحة.. سيقول لها أنها تقرأ الأفكار.. ستبتسم وتحمل صينية الطعام؛ طعام العشاء الذي لم يأكل منه سوى ربعه.. لن ترمقه بنظرة ذات مغزى.. لن تضيف كلمة أخرى.. ستخرج.

***

«انظري».

«ما هذا؟. إطلاقات؟. من أين؟».

«وجدتها في المخزن، في جرار الدولاب القديم».

«أهي خاصة بتلك البندقية المعلقة في الصالة؟».

«نعم، بندقية الصيد».

«لا تقل لي؛ إنك ترغب في الصيد؟».

«هذا يتوقف على ما نعنيه بالصيد.. الصيد أنواع مختلفة.. في ظروف معينة كل شيء يكون قابلاً للاصطياد».

وراح يقلّب الإطلاقات الثلاث ذوات الأغلفة الحمر بين أصابعه، ويحدِّج امرأته بعيون تلمع من الإثارة.

«أليست تقتل أيضاً؟».

«تقتل، نعم.. أترغبين أن تجرِّبي؟».

وأطلق قهقهة مدوِّية.

«اضحك، اضحك.. هذه سبب المصائب كلها».

«ليست هي السبب.. هي علاج أحياناً».

«تتحدّث كحكيم».

«ربما كمغفّل».

«أهي بدايات جنون؟. هههههه».

«لا أحد يدري متى تهبُّ العاصفة في الرأس».

«لا تليق بك لغة الألغاز».

«لست أنا من يصنعها.. إنها تلتفُّ حولي».

«ما الذي يلتف حولك؟».

«الألغاز».

«هههههههههههههههه».

«هههههههههههههههه».

***

ما رأته أمينة من نافذتها كان ثلاث مروحيات أباتشي اهتزت رؤوس النخيل بعصف مرورها.. هرعت إلى الصالة في اللحظة التي وصل فيها أبو أمجد بملامح مخطوفة.. أنبأهم أنه لمح وهو في طريقه إلى هنا من نافذة سيارته الفولكس واجن أكثر من خمس مروحيات، فيما تصطف مدرعات الهمر، على طول الشارع أمام المنزل، وينتشر الجنود الأمريكان بتأهب غير مسبوق كما لو أنهم على وشك اقتحام البساتين. وقد تجاهلوه حين عبر أمامهم، فهم لم يقطعوا السير، كما جرت العادة، وهذا غريب.

أفصحت نجاة عن مخاوفها بشأن أبيها الذي يقبع محبوساً في مكان ما، تحت رحمة المسلّحين.. قال الشيخ رفعت:

«كان يجب أن نُعلم الشرطة لنسجِّل موقفاً كي لا يعدّوه إرهابياً إذا ما أمسكوا به هناك».

قال أبو أمجد: «وما أدرانا أن الحاج محجوز هناك؟».

قال باسم: «عليكم الآن البقاء في الصالة، لأن غرفكم معرّضة لإطلاق النار».

كان هدير المروحيات يعلو حيناً، وحيناً يخفت. ، لكنه لم ينقطع..

قال أبو أمجد:

«لا أظنهم سيتصلون اليوم، كذلك».

كانت أسنان عاتكة تصطك، وسيقانها ترتجف.. خزرها عادل مع نصف ابتسامة ساخرة.. قالت: «أين كسريتك؟ أليس هذا وقت استعمالها؟».

قال عادل: «نعم، سأفرغ رصاصاتها في رأسكِ».

قالت أمينة: «انظروا، نحنُ في أي حال، وهذان يتناقران».

استغرقهم صمت متوتر لبضع دقائق قبل أن تُجفلهم فرقعة جرس هاتف أمينة. تبادلوا نظرات قلقة. أخذت أمينة الهاتف، وناولته لأبي أمجد الذي قبض عليها وزفر.. فتح خط المكالمة. ومنذ الهمهمات المرتبكة الأولى، وهو يتواصل مع محدِّثه، تخيلوا سيل البذاءات المنهالة عليه.. كان يردد كلمات مبهمة، لم يفكوا معناها؛ نعم...

لا.... لا..... نعم.. لا والله..... اسمعك..... من المستحيل..... الآن..... أعتقد..... نعم..... الطريق مقطوع... لا.. أرجوك.. الله يحفظك.... مقبولة منك... عادل؟.... نعم، عادل... يمكن..... لنر.... نعم، نعم الله يخليك»

وضع جهاز الهاتف على الطاولة.. أخرج من جيب دشداشته منديلاً حريرياً أبيض مسح به عينيه وفمه.. سألته عاتكة:

«لماذا قلت عادل».

«ليس أنا، هم سألوا عنه».

«ماذا أرادوا؟».

«سأل إن كان عادل موجوداً، قلت نعم، قال؛ نحن نعرف أشياء، لم يقل لي ماذا».

«وماذا غير هذا؟».

«أشار إلى البرتقال والبرد والشاي، وقال لا تقتربوا من النوافذ، شتمني وهددني بالقتل إذا لم أصغِ إليه جيداً، وطلب منّا أن نكون مستعدين، ولم يخبرني لأي شيء».

قال الشيخ رفعت:

«ما هذا الهراء؟».

قال باسم:

«أيعقل؟».

قالت عاتكة: «وأنت يا أبا أمجد لم لم تسأله عن الحاج، وماذا يريدون؟».

«لأنه هددني إذا ما سألت أي سؤال سيذبحون الحاج ويتركون جثته على باب الدار.. قال أنهم لم يقرِّروا بعد ما عليهم أن يفعلوا به».

قالت نجاة: «ولماذا اتصلوا أصلاً؟».

قال أبو أمجد: «والله يا ابنتي لا أعلم، وأخجل أن أعيد على مسامعكم شتائمه التي كالها لي.. كأننا متورطون مع زمرة مجانين».

انقطع هدير المروحيات، وران سكون مهيب.. صعد باسم إلى الطابق العلوي لينظر من نافذة غرفته إلى الشارع. لم ير سوى سيارة بيك آب تمرق مسرعة. وصاح من أعلى الدرج:

«يظهر أن الأمريكان انسحبوا».

قال عادل: «ولم تثر إطلاقة واحدة».

قالت أمينة: «الحمد لله وإلا لكانوا هدموا الدار على رؤوسنا».

قال أبو أمجد بصبر نافد: «مع السلامة».

لم يصطحبه أحد ليودعه عند الباب.

***

وقف وراءها على مبعدة خطوتين، فيما ثنّت هي جذعها، واضعة راحتيها على طرف السرير.. انسابت نظراته بحنان ممزوج بالشهوة على البروز الدقيق لفقرات ظهرها، على الاستدارة الحميمة لردفيها المرتفعين، على الخط العسلي المشدود النازل لساقيها، على كعبي قدميها الغاطستين قليلاً في وبر السجادة الحمراء الغامقة على أرضية الغرفة، بانفراجة تكفي ليسير كل شيء على ما يرام. استغرقت معاينته التي تركته متوقداً حتى الجذور ثوانٍ لا تُذكر، وخطا نحوها.. تلمّس جلدها الحنطي الرقيق عند خاصرتيها، من ثمّ داعبَ بطنها ونهديها، وانحنى ليتشممها ناثراً قُبلاته على كتفيها وصفحة عنقها، قبل أن يحيطها بذراعيه. همس: «امسكي جيداً». حشرجت مستنكرةً: «أنزله تحت، ليس من هنا». قال معترضاً: «أليس هذا ما تفضّلينه؟». «لسنا في بيتنا.. لا أريد أن أصرخ مثل حيوان مضروب». وأشار بصوت هادئ مغوٍ ومرح بأنها تسمن لكنها تصير أجمل، ورجاها ألّا تشنّج جسمها، وما كادت ترخي قبضتيها اللتين تعصران شرشف السرير المورّد حتى صرخت: «لا تصفع بقوة... آآآآآآخ». وضع فمه على أسفل رقبتها: «لا أرغب بطفل آخر.. سأقتلكِ والله». جعلها دفء أنفاسه تغمض عينيها: «من يرغب بطفل آخر؟. سيفيض بعد يومين أو ثلاثة.. لا تقلق».

«جيد..».

«آآآآآآآآآخ.. حبّة حبّة».

«اخفضي صوتكِ».

«على كيفك.... قلت لك لا تصفع».

«يحرِّض على الصفع.. ما أحلاه».

وكان في نصف سبيله إلى الذروة حين تلاحق خلال لهاثه كلامًا في الغزل متبَّلاً بالسباب الماجن. فردّت على سبابه بالمثل. بيد أنها في هذه اللحظة تململت فاستكان: «كفاية، هذه الوضعية تتعبني.. سأستدير وأنام على ظهري».

«حبّة حبّة.. أووووف».

«طوقي ظهري بساقيكِ».

«أبعد لحيتك عن فمي».

«آآآآآه، آآآآآآآآآآه، آآآآه، آه، آه».

بدا صوتها مرتفعاً أكثر من المعتاد، ولا يخلو من تذمر، لمّا طلبت منه أن يقوم ويحرِّرها سريعاً من ثقله. نهض حانقاً وارتدى دشداشته.. تمدّد على السرير إلى جانبها مديرا لها ظهره.. نزلت وارتدت إزارها الصوفي المشجّر.. كانت ملامحها متقبضة واجمة.. لم تقل كلمة، لم تنظر إليه، وهي تخرج إلى الحمّام.

***

ما يزال جالساً على كرسيّه.. يتولاه البرد والنعاس.. يُخرج زجاجة الويسكي علامة (تشيفاز) من حقيبته.. يشرب كأسين بعد إضافة قليل من الماء إليهما.. يشيع الدفء في بدنه.. ها هو يدخن سيجارة، ربما قرّر أنها الأخيرة، قبل النوم.. منذ نصف ساعة تمنّت له أمينة ليلة طيبة وخرجت.. الليل يتداعى في الخارج.. ينحل بصخب فظ، بأنين وحشي. كما لو أنه يتمزّق، يمزِّق نفسه.. قام وأزاح ستارة النافذة قليلاً.. نظر إلى أشجار الحديقة التي تتلاعب بها الريح والبرد والمطر، وتسوطها البروق.. كانت البلدة أمامه هائمة في ظلام تثقبه مصابيح راعشة، هنا وهناك.. أراد أبوه أن يكون داره جزءاً من البستان.. البستان حياته كلها.. أراد هو غرفة تنفتح على قوس البساتين

المنحدرة حتى النهر. رفضوا. كلهم كانوا يرغبون بالجهة الأخرى. قال له أبوه، ستكون الحديقة جزءا من البستان، ستلتف حول البناية ولن نبني جداراً فاصلاً. ستطلُّ نافذتك على أحلى منظر. وزرع السدر والنارنج والرمان والتين وثلاث نخلات، وصفوفاً من ورد الجوري والفل والجربرة.. لكن، حتى في هذه الليلة الهائجة ترجعه ذاكرة الورد إلى لينا.

لينا مِسك الذاكرة، وترنيمة الحكايات.. ولطالما تجلّت، أمام عين مخيلته، بفائض رونقها وغموضها كأنها طالعة من أيكةٍ مسحورة، تخفيها عن العالم صفحةٌ سرّية، لم تُقرأ قط، في كتاب (ألف ليلة وليلة).. لينا التي كلما رام الاقتراب منها فوجئ بها تنأى عنه.. ليس القصد بحضورها الجسماني الجميل، ولا حتى بمشاعرها الدافئة.. على العكس، فهي ما كانت تفوّت أية فرصة لتكون معه في ساعات العمل، وما بعدها. إلى الحد الذي جعلهما موضع نميمة يستمتع بالخوض فيها زملاؤهما في الدائرة.. فما كانت تأبه، حين تثار، حول طبيعة تلك العلاقة، الشائعات والأقاويل.. واعتقد دوماً أنها حملت نحوه شغفاً متقداً أو مشاعر حبٍ على طريقتها.. فيما ظلّ هو في مدار افتراضاته ومخاوفه.. ما يفترضه ويتهيأ له فتركبه الهواجس والوسوسات.. عرف أن تفكيره فيها هو الذي يبعدها عنه.. خططه التي يجدها في النهاية سخيفة، لا واقعية.. أحلامه الخيالية التي بقيت أسيرةً ما بين صدغيه....

قال في دخيلته: «لعلّني ضحية ما أصنع من قلقٍ يتلبسني ويفقدني القدرة على فعل الصواب.. ألا يشبه هذا أحجية مستغلقة؟. ربما هو كذلك».. لم يسطُ على ذهنه شيء أو شخص أو حدث أو قضية بقدْرِ ما سطت عليه لينا.. غير أنه أخفق في الإمساك بها.. ومهما مشى باتجاهها كانت المسافة بينهما تبقى نفسها.. يعترف الآن بأنه كان يمشي في الاتجاه الخاطئ، حيث السراب لا نهرها.. في دخيلته يقول أيضاً: «كانت هي في الجهة الأخرى، وكنت أنا أعمى بعنادي وغبائي وجبني».

كأن الموسيقى جاءت بها إليه.. طرقتان خفيفتان على الباب نصف الموارب وفتح عينيه، وإذا بيدها تبعث حركة عفوية راقصة وتبتسم.. كانت ابتسامة كظهور ساحل مدينة في الفجر أمام ناظرَي ضائعٍ في البحر.. نفض رأسه، هزّه يميناً وشمالاً بسرعة مرتين أو ثلاثاً، ليستعيد روحه المتهادية من مسيل الحركة الثالثة من متتابعة شهرزاد لريمسكي كورساكوف.. دنت منه وابتسامتها تتسع، وقد يكون فغر فمه تحت وطأة تلك الدهشة السعيدة.. هي كأنها تعرفه منذ الأزل.. أما هو فما كان في تلك اللحظة على طبيعته.. قالت، مادةً يدها الطرية التي بلون العاج : «أعرف حضرتك.. أنا لينا إدوارد».. سوف يفكر فيما بعد إنْ كان قال لها، لمّا صافحها، «تفضلي اجلسي» وإلا ما كانت ستقول «شكراً» وتجلس على أحد الكرسيين الموضوعين أمام منضدة مكتبه. لكنه على يقين تام بأنها كانت ما تزال تبتسم، فيما تختال شهرزاد كورساكوف سابحة كدخان عطري في فضاء الغرفة..

حين شرع الكمان يعزف منفرداً في الحركة الرابعة راحت لينا تحكي.. تتكلم كمن يستأنف حكاية انقطع ثوانٍ وجيزة بين صديقين.. رغبت في تقديم عرض اختبار ليجري اختيارها لدور في عمل مسرحي.. مهووسة كانت لينا بالمسرح.. تحدّثت عن شكسبير ويونسكو وبريخت وبراندللو وهارولد بنتر ومحيي الدين زنكنة وسعد الله ونوس، وعنه هو (باسم إبراهيم)، عن أول مسرحياته وآخرها.. «أنت مؤرخ الألم.. والحزنُ في أعمالك جميلٌ» قالت له.. وفي النهاية أخبرته أنها ستقدّم مشهداً من مسرحية لكاتب تحترمه هو صباح الأنباري..

«كأن الدور مكتوب لي».

لن يجد صعوبة في إقناع صديقه المخرج (عباس درويش) في أن يشاهد تمثيلها ويقرِّر.. ولأن لا عملَ كثيرٌ يشغل العاملين في الدائرة، دفع الفضول والضجر معظمهم للحضور.. توزّعوا جالسين على مقاعد المسرح الصغير.

من طرف المسرح إلى منتصفه، وعلى أطراف أصابع قدميها، إنساب جسمها كراقصة باليه.. وقفت في مسقط ضوء مصباح شاحب وحيد، وقالت: «طيب، هذه الحركة ليست من ضمن المشهد الذي سترونه» ضحكوا.. انتظرت أن يعود الصمت.. أشارت إلى زاوية الخشبة.. «تخيلوا هنا نخلة».. نطقتها بطريقة جعلتهم يضحكون ثانية.. وما هي إلا لحظات حتى اكتسب وجهها سحنة الخوف.. من

ثمّ امتزج الخوف بتعبير أقرب ما يكون للشفقة.. أخذت نفساً عميقاً.. راحت تلهث.. علا صوت لهاثها.. إنها، لا شك، مغتاظة، غاضبة.

«يا الله... ما أشد هذا العنف، وما أقساه.

أنا شجرة معمرة قوية جداً، لكنني أمام هذه القسوة أكاد أسقط، ويغمى عليَّ إلى أبد الآبدين، فكيف بهؤلاء البشر؟ هل قدّت قلوبهم من نار؟» (ارتفعت نبرة صوتها) «هل وضعوا بين جوانحهم حجراً أصم؟» (بنبرة أشد ارتفاعاً) «هل فقدوا في لحظة هياج إنسانيتهم؟ هل...» (سكتت فجأة، ثم صدح صوتها بقرار هادئ) «ما نفع أن نسأل أنفسنا وما من جواب. حسناً سقطت المملكة، وسقط ملوكها، وحلّت الجمهورية، وزعماؤها الوطنيون، واستبشر الناس خيراً، وراح الزعيم يقدّم للناس ما لم يقدّمه لهم غيره حتى قدَّسوه، وألّهوه، وظهرت لهم صورته على وجه القمر. تصوّروا إننا معشر الشجر صدّقنا ذلك أيضاً (رفعت رأسها.. جالت بعينيها كما لو أنها تبحث عن شيء طائر أو كوكب ما) «ورحنا ننظر إلى القمر طواعية وفضولاً علّنا نرى عليه ما رآه الراؤون. لم أكن أطول شجرة في حديقة الأمة، لهذا استنجدت بالنخلة التي تقف قريبةً مني». (أومأت إلى النخلة، ووجهت إليها الكلام) «هيه أنت أيتها العيطة، هل ترين صورة الزعيم على وجه القمر؟ (مشت بتثاقل صوب الجهة التي فيها النخلة المفترضة.. هدأت قليلاً.. ردّدت بصوت حزين كما لو أنها تقلّد صوت النخلة). «آه لو تدرين كم أشعر بالمرارة وأنا أسمع ما يتفوه به هؤلاء البشر

من تُرّهات. يكذّبون على أنفسهم، ثم يصدّقون كذبهم، ويؤمنون به كواقع حال حتى أن شجرة عاقلة مثلك تتأثر بتلك الأكاذيب وتستفسر عنها. آآآآآآه ما أشدّ بؤسنا ونحن نلوك أوهامنا كلّ يوم».

بوغتوا بشخص سبقهم بالتصفيق.. لا يدرون كيف دخل من غير أن يفطنوا.. التفتوا إليه ووقفوا.. كان سامي عبد الحميد، المسرحي الكبير يقف وراءهم.. قال بصوته الجهوري الأجش: «عباس، هذه المرأة خلقها الله ممثلة».. واقترب منها.. «قولي لي يا ابنتي أأنجبتكِ أمك في كواليس مسرح؟».. لم يكونوا بحاجة إلى شهادة أخرى ليتأكدوا من أن لينا إدوارد ممثلة حقيقية.. اكتفوا بالضحك.

كيف لهذه النافذة المطلّة على دنيا اغتراباته أن تمعن في كل ليلة بالعبث في الجرح الذي اسمه؛ لينا إدوارد.

حدّق في الطريق المعتم الجهم، المار أمام الدار. انكمشت أحشاؤه.. كأن ثمة من يراقبه من قلب الظلام.. أعاد الستارة إلى وضعها.. أطفأ الشموع الثلاث في الشمعدان المركون على الطاولة ذات القوائم القصيرة.. دخل تحت اللحاف، في الفراش الذي أعدته له أمينة على سريره الخشبي العريض، في غرفته.. كان مجهداً إلى الحد الذي لم يقوَ معه على الشعور بالتوجس والخوف.. أغمض عينيه، وحسب أن النوم لن يغلبه حتى انبلاج الصباح..

لم يدرِ متى نام.

اليوم الرابع

أيقظهم الرنين العالي لموبايل أمينة، المتروك في الصالة.. صوتٌ صاخبٌ شرخ هدأة الفجر.. هذا الصوت يعرفونه جميعاً، فلطالما خلّف قشعريرة مبهمة في عظامهم وخلاياهم. قفز باسم من فراشه، ونزل الدرج وثباً.. وخرجت أمينة من باب غرفتها إلى حيث يهتز الجهاز الأسود الصغير على الطاولة الخشبية.. فيما جلس الآخرون على أسرّتهم، بعدما طار النوم من عيونهم وتملّكهم الذعر.. الكهرباء مقطوعة وما تزال العتمة تخيّم على البلدة.. لم يخرجوا حتى بعد أن تناهى إليهم ردّ أمينة بنبرة عالية وخائفة: «ألو.. من؟. تفضل.. ألو.. ألو». ثم، أستحوذ صمت مقلق. وحين عاد صوت الجرس المنذر يتواصل ثانية بعناد غريب، أطلت نجاة وزوجها الشيخ رفعت من باب غرفتهما.. وبعدهما رأيا عاتكة تنزل الدرج يتبعها زوجها عادل وآثار النعاس تنوِّس جفنيه.. كانت الصالة مُنارة بضوء الفانوس.. انقطع الرنين، قبل أن يعود بالضجيج الصلف ذاته.. أخذ باسم الموبايل وضغط على زر الاتصال الأخضر: «ألو.. نعم.. تكلّم.. لماذا تنفخ؟ من أنت.. تكلّم.. قل ماذا تريد؟».

جلس باسم على أقرب كرسيٍّ خشبي، وقبالته جلس الشيخ رفعت. وكان جذع عاتكة يرتجف، وأسنانها تصطك.

«هذا الرقم غير معرّف.. ليس رقم أبي الذي كانوا يتصلون منه».

«يريدون التلاعب بأعصابنا».

«من قال إنهم هم؟».

هزّت أمينة سبّابتها وكأنها تواجه كائناً افتراضياً غريباً، وقالت:

«أقسم أن المتصل امرأة».

سألها الشيخ رفعت:

«وكيف عرفتِ؟».

أجاب باسم:

«أنا أيضاً أظنها امرأة».

«أمع الجماعة نساء؟».

«ولِمَ يكونون هم.. دائماً يخبروننا متى سيتصلون.. المزاح ليس لعبتهم».

«بدأت أخاف حقاً».

«لماذا لا نغادر جميعنا البلدة؟».

«ونترك الحاج لمصيره.. أي اقتراح هذا؟».

سأل الشيخ رفعت:

«ما تفسيرك أنت؟».

«لو كان لديّ أيّ تفسير مقنع لقلته».

مشت أمينة نحو الستارة وسحبتها.. شرع النهار يسرِّب نوراً حيياً خلال ضباب سميك.. سمعوا هدير سيارة عابرة في الشارع:

«ألا تملكون حسّ الخطر؟».

«عاتكة على حق.. نحن نراهن على حيواتنا».

«قلنا في أول يوم.. من يرغب في المغادرة هو حر.. لن نلومه».

«اذهبوا كلكم».

«لن نذهب.. لا أحد سيترك البلدة.. سيصفّى هنا كل شيء، اليوم أو غداً، أو بعد أشهر».

«ابقوا.. هي داركم.. إن بقيتم أو رحلتم، الدار باقية هنا، لن تطير».

«من يدري ما الذي سيبقى، وما الذي سيطير؟».

«يا له من لغز؟».

«لا لغز في الأمر.. انتِ أكثر من يدرك هذا».

راح باسم يدخّن.. قال عادل إنه راجع لفراشه. لم تلحق به عاتكة.. دخلت نجاة غرفتها مع زوجها.. وانسحبت أمينة إلى المطبخ:

«لماذا لعبة جر الحبل هذه.. لماذا لا يتفقون على صفقة؟».

«صفقة؟ نعم، هم لا شكّ يديرون المسألة في أذهانهم من زاوية الصفقات».

«أنت تفهم دوماً ما الذي أعنيه»

«نعم، تماماً، أنتِ محقّة وذكية.. ولهذا سأختصر إجابتي».

رفع رأسه، وأطلق حلقة دخان، راحت تتلولب، وتتلاشى عند السقف.. تركها تبتسم وتهزّ رأسها، وصعد الدرج.

***

«ليسوا بشراً.. يشبهون الشياطين، بل هم من جنس الشياطين يملؤون الجوار».

«يبدو أن زوجكِ يُقنعكِ بشياطينه».

«صدّقني.. بلا مزاح.. إنها كائنات غريبة، عدائية، لكنها لحسن الحظ، بليدة، وليست على عجلة من أمرها».

«أتكون عاتكة، رأت، ليلة البارحة، حشداً منهم، في حفلة رقص؟».

«لا تسخر.. أجل، رأتهم.. هذا ما أنا واثقة منه».

«كان يجب أن تلتحق بهم.. ربما كانوا قومها الأصليين وهي لا تعلم».

«أرجوك، لا تتمادى.. لسنا في أمان، وعلينا أن نجعلهم يعيشون في سلام بيننا».

«أكلّمتِ أياً منهم؟ ما لغتهم؟».

«لا تقل مثل هذا الكلام.. أنا متأكدة من أن أمينة تعرف شيئاً.. لم أكلِّمهم.. رأيتهم».

«يتهيأ لكِ.. الوحشة والخوف والظلام.. أشياء كهذه تولِّد تهيُّؤات».

«لا.. أنت تراهم، مجسّدين واضحين».

«كيف هم؟».

«مثلنا تماماً».

«قد يكونون من الجماعة.. يتسللون ليكونوا قريبين جداً».

«لا.. لا.. هم أطول قامة منّا نحن البشر، وملابسهم غريبة».

«ملابسهم غريبة، كيف؟».

«يرتدون التنورات السود، وقمصانهم مشعرة، كما لو أنها من

جلود الماعز.. لا تضحك، أرجوك».

«هذه من صور الأفلام التي تحكي عن معارك الأوربيين في القرون الوسطى.. أشاهدتِ فيلم (القلب الشجاع) لميل جبسون.. صور مترسِّبة تطفو حين تخافين».

«تعرفني.. لست من النوع الذي يخاف.. حتى حين كنتِ صغيرة.. ألا تذكر؟».

«كلنا نخاف.. الخوف غريزة طبيعية. وهو الذي يضخُّ لعقولنا الأشكال الغريبة والكوابيس».

«أنتَ لستَ مؤمناً، لذلك لا تصدِّق».

«أتراكِ تعتقدين أن أبي معهم؟».

«انظروا كيف يضحك بصوتٍ عالٍ».

«اذهبي واقرئي المعوِّذتين ونامي.. ألا يعلِّمك زوجكِ مثل هذه الأشياء؟».

«الأفضل أن أخابر المربية.. قلبي مفطور على الطفلين».

***

«كان ذلك قبل تعرّفي على لينا».

«لينا؟ من هي؟».

«آه، ألم أخبركِ عنها؟».

«أبداً.. يبدو أنكَ تخفي عني بئر أسرار».

«لينا التي عثرت عليّ في المسرح».

قالت مع ابتسامة عريضة:

«أكنت ضائعاً حينها؟».

«أجل، وقد وضعتني في الاتجاه الصحيح، لكني عدت وضعتُ ثانية.. قدري أن أضيع المرّة تلو المرّة».

«تخلّتْ عنك».

«تخلّيتُ عنها».

«لِمَ؟».

«هذا ما لم أجد له تفسيراً مُرضياً».

«نزوة، ملل، غضب، شك».

«لا، ربما القليل من هذه الأشياء كلها، وأشياء أُخر».

«هل أحببتها؟».

«أحببتها إلى الحد الذي عجزت معه عن الإيفاء بمتطلبات هذا الحب الباهظ».

«لتتخذ، بعد ذلك، بتصميم لا تُحسد عليه، المسار الخاطئ».

«نعم، من حقكِ أن تكوني قاسية بالكلام معي».

«أنت الذي كنت تستنكر أي محاولة للهرب».

«هربتُ، ورفضتُ أن تلحق بي.. أردتُ أن أجنِّبها الضياع».

«خذلتها».

«بقينا سنتين معاً.. أحلى أيام العمر.. هي مسيحية، أرمنية.. عاندت أمها وأصرت على البقاء ببغداد يوم فكّرت الأم بالهجرة.. تعرفين ما حصل بشأن المسيحيين عموماً.. أسرّت لي أنها باقية من أجلي.. قلتُ لها اذهبي، أنا امرؤ لا يُعوّل عليه».

«يُخيّل لي أنكَ ظلمت نفسك قبل أن تظلمها».

«أردتها أن تنقذ نفسها.. كنت أعيش أياماً عصيبة.. أخبرتها أنني رهانٌ خاسر.. بكتْ.. هربتُ أنا».

«أين هي الآن؟».

«في بيروت.. آخر مرّة عرفتُ أنها هناك».

«كان يمكنكما أن تهاجرا معاً».

«فكّرت أنني لو رافقتها سأتسبب لها بفصول من العذاب.. ما كنت أمتلك العزيمة، ولا الحلول».

«أتوقع أنك نادم الآن».

«أشعر حيالها بالأسف والأسى».

«كنت أظنّك مغامراً، تعشق الغموض، ولا تهاب التجربة».

«المغامرة بمصير من تحب جريمة».

«لكنك تركتها تغادر إلى المجهول».

«ما كنت أستطيع منعها».

«واليوم، لا تعرف إليها طريقاً».

«ذات يوم اتصلت بي.. كان ذلك قبل أشهر.. حكت لي عن ظرفها هناك.. لم تشر إلى أنها تريد مني شيئاً.. كانت تحكي لصديق».

«ربما خطّطتْ أن يكون معك رقم هاتفها لتتّصل بها في ما بعد».

«لم أتصل.. وهي كذلك لم تتصل مرّة أخرى».

«لن تتصل مرّة أخرى.. الكرة في ملعبك كما يُقال».

«أشعر بالخواء، وهذا يسلبني الشرط الضروري لأكون صالحاً لعلاقة مع امرأة مثلها».

«أسألتَ نفسكَ لِمَ أحبّتكَ أنتَ، على الرغم من أنكَ من ديانة أخرى؟».

«في العمق كنّا من دين واحد.. دين خاص بنا.. وقد آمنتْ بي

وآمنتُ بها.. لكن كانت هناك فجوة ما.. فجوة مخيفة من صنع حياتنا هنا، في هذه البلاد.. فجوة، رفضتُ أن أجازف لئلا تقع فيها».

«لعل الفجوة تلك في دماغك أنت فقط».

«لعلها كذلك، ولكن ماذا أفعل لدماغي كي أزيل منه تلك الفجوة.. أفتقد إلى الحيلة».

«أنت غريب.. لك هوس بكل ما يُحيّر ويُربك ويدفع إلى التيه.. ما تفتقر إليه هو الإيمان.. الإيمان بنفسك أولاً».

***

«ألم تحدِّثكَ عن أملاكه.. عن النقود والذهب.. عن أوراق الملكية؟».

«تعرفين أنني لا أولي هذا الأمر أيّ اهتمام».

«لكنه حقّنا.. ما يملك هو لنا».

«أترين أنه الوقت المناسب للحديث في هذا؟».

«متى إذاً.. أنا يائسة من عودته.. والوضع هنا سيِّئٌ، وفي أي لحظة يمكن لأولئك أن يدخلوا البلدة ويحتلوها».

«كيف لكِ أن تتصرفي ونحن غير متأكدين من مصيره؟».

«أيمكن أن نطلب من المحكمة تثبيت وفاته؟».

«لم يغب سوى بضعة أيام.. أتدرين يا نجاة، كلامكِ هذا يسبب لي الغثيان».

«كان يجب أن تكون أنت أكثرنا إصراراً على توزيع الحقوق.. نحن جميعاً نعيش في مستوى مرفّه.. أنت الوحيد الذي لا تملك حتى شقة صغيرة، ولم تتزوّج بعد.. ماذا تنتظر؟».

«أعرف أنكم جميعاً لستم هنا من أجله».

«وأنت ما الذي يجعلك تبقى؟».

«المسؤولية».

«هه.. هههههههههه.. المسؤولية.. لا تقل لي أنك تحبه».

«ليس للحب علاقة بالأمر.. هي مشكلة عائلية، وتعنينا.. لم أره منذ سنين، لم اتصل به، وهو أيضاً لم يسأل عني.. مررت بأيام صعبة، صعبة أكثر مما تتخيلين، ولم أطلب منه فلساً.. لكن ليس لنا أن نهرب الآن.. أو نستعجل موته؟».

«وليس من المعقول أن نبقى هنا إلى الأبد، فيما هم يضحكون علينا».

«قولي لي إن كنتِ تملكين أية خيارات واقعية، ممكنة؟».

«أنت لا تفكّر بعقل.. لسنا نعيش فصلاً في مسرحية تشبه تلك التي تؤلفها.. لسنا كائنات خيالية».

«لا، بل هي كذلك.. ثمة مسرحية، لكنها ملغزة.. هناك سر».

«ما هو؟».

«هذا ما علينا اكتشافه.. لست واثقاً من أن ما يجري هو عين ما نعرف عنه».

«لم أفهم.. ماذا تقصد؟. أتعرف شيئاً لا نعرفه؟».

«حين أصل إلى شيء مؤكد سأعلمكم».

«ما الذي يجعلك تعتقد أن هناك شيئاً خفياً».

«لا معقولية هذه المحادثات في التلفون.. كأنهم كائنات فضائية، أو شخصيات من مسرحية لبيكيت، لكن ما نعرفه عنهم أنهم واقعيون جداً، وسطحيون جداً، ومباشرون جداً».

***

«أن تكوني امرأة في بلدة كهذه».

«ألستِ سعيدة؟».

«هه.. ماذا تقصدين بكلمة سعيدة؟».

«الفلوس، الأملاك، راحة البال، زوج وعائلة محترمة».

«لا سعادة مع الفراغ حتى لو حزتُ على أضعاف ما نملك.. كل شيء هو هو، يتكرر يوماً بعد آخر.. تتبلّد عندكِ حتى حاسة الذوق..

والأشياء تفقد طعمها.. لم يعد يعنيني ما آكل وما ألبس».

«لو تدرين ماذا تعتقد تلك المرأة بخصوصكِ».

«أعرف.. لأنها تتصوّر أنني أفكر بطريقتها نفسها.. ولأكن صريحة معكِ، حتى أنتِ ينتابكِ الشك حيالي أحياناً».

«صحيح، أحياناً.. كلنا مضطربون.. لكن الفرق بيني وبينها هو أنني أعرفكِ منذ فتحت عيني على الدنيا، أعرف معدنكِ، أعرف طبيعتكِ».

«والسؤال؛ كوني امرأة بهذا العمر، وفي بلدة كهذه، وفي زمن سيِّئ مثل زماننا، ما الذي أستطيع أن أفعله، وما الذي سيتغيّر معي حتى لو سجّلوا القصور والبساتين باسمي. حتى لو أعطوني البلدة كلها؟».

«هل المشكلة في... أبي؟».

«لا، لا.. لستُ مستاءة من وجودي معه.. علاقتنا طيّبة، وأظنه يحبّني بطريقته، وبالتأكيد يحترمني.. هو له أخطاؤه، مثلما لنا جميعاً أخطاؤنا.. قلت لباسم؛ لم يسلك بعدالة مع أولاده.. هو رجل جيّد ومحب، لكنه لا يُحسن التعبير عن حبّه لكم بشكل مُرضٍ وملموس.. عنيد، صلب، وذو كبرياء، ويعتقد أن أولاده خذلوه.. ومن الصعب أن تغيّري ما يدور في رأسه».

«آ، نعم، هو كذلك».

تصمت أمينة.. تعود نجاة لتسأل:

«وأنتِ؟»

«أنا؟.. ماذا عنّي أنا؟.. منذ سنين طويلة يا نجاة تبدّل الحظ وضاع الطريق».

***

في الموعد عينه، عصراً، يقبل أبو أمجد.. يجلس بوجه متجهم، ويقول:

«اتصلوا بي قبل ساعة.. يقولون نريد التفاوض مع عادل».

«لا مشكلة.. سأتكلم معهم».

«يرويدونك هناك».

«أين؟».

«في مكانٍ ما في البستان.. سينتظرك واحد منهم غداً عند الحادية عشرة صباحاً.. تمشي المسافة حتى موضع المخزن القديم، ومن هناك سيصطحبك إليهم».

صاحت عاتكة:

«عادل عنده أولاد.. هذا مستحيل».

قال باسم:

«أنا سأذهب بدلاً منه».

«حدّدوا اسم عادل.. لا غيره.. ولكم أن تناقشوا مع بعضكم وتقرروا».

قال باسم:

«يمكننا أن نقترح عليهم حين يتصلون».

قالت أمينة:

«هم لا يلعبون».

قال الشيخ رفعت:

«الوقت لا يجري لصالحنا.. علينا حسم المسألة.. تركت أشغالي في بغداد وجئت».

قال عادل:

«تستطيع العودة، ولتبق نجاة هنا».

«لن أتركها هنا».

«سوف نبقى كلانا.. لا خيار آخر لدينا».

***

وقفا عند حائط ستارة سطح الدار.. جذب نظرهما الغروب الكبريتي الساطع، يلوح فيما وراء ذؤابات النخيل، فوق التلال

الشبحية.. قالت:

«أي المدن التي زرتها أعجبتك؟».

«تلك التي لا تعرفني».

«رغبة الاكتشاف».

«ليس هذا.. بل لأن فيها تستهويني ارتكاب الأخطاء».

«الأخطاء».

«الحماقات».

«الحماقات».

تضحك، يبتسم.. ترمقه بنظرة جانبية خاطفة، مفعمة بالحنان، قبل أن تعود وتحدِّق حيث يحدِّق.

«ليتني خضت تجربتك».

«كان لها ثمنها أيضاً».

« ثمن مقابل شيء.. غالبا ما دفعنا أثمانا للاشيء».

«تتحدّثين كخاسرة».

«وماذا تعتقد؟».

«لا أحد منّا يعلم كم خسر وكم ربح».

«خسرت قدرتي على الحلم.. أقصد أحلام اليقظة.. الحلم حل.. حتى هذا.. تصوّر».

«بم تفكرين إذاً؟».

«انظر، كيف يباغتنا الليل».

«العودة إلى الرحم».

«يا ليت.. طوال حياتي رغبت بالدفء ولم أنله».

«برجل».

«لا، ليس بالمعنى الجسدي فقط.. دفء.. لا أمتلك الكلمة المناسبة».

لم يعلِّق.. استدركتْ:

«كان الغجر يرحلون نحو تلك التلال ويختفون.. أتذكر؟. كان يخيل لي أنهم يذوبون في الأفق، مع الشمس، وبعد سنة يشرقون معها».

«في حياة أخرى لكنتِ شاعرة».

«قدر اللحم على الموقد، يجب أن أعد العشاء».

لنصف ساعة بعد نزولها لبث في العتمة والبرد، يدخِّن.

***

الرنين غير الأليف للهاتف الخلوي أسكتهم.. تلاشى اللغط في الدخان، وفاحت رائحة الشاي المهيّل، فباتوا يسمعون الأشجار وهي تجالد ريح الليل..

قبضت نجاة على كتلة هاتفها ونظرت إلى الشاشة المضاءة:

«إنه فريد».

«دعينا نسمع ما يقول».

رفعت نجاة مستوى الصوت إلى أقصاه:

«ألو».

«أهلاً نجاة، كيفَ الحال؟».

«أهلاً فريد.. الحمد لله.. كيفك أنت؟».

«ما الأخبار عندكم؟».

«برد ورياح ومطر. هههههههه».

«هنا درجة الحرارة ثماني تحت الصفر.. أسألكِ عن أخبار أبي».

«ما زال عندهم.. يريدون عادلًا ليتفاوض معهم وجهاً لوجه».

«أخشى أنهم يريدون رهينة ثانية، ومن ثم فدية أكبر».

«لا نعرف ماذا علينا أن نفعل.. سيذهب باسم بدلاً عنه».

«وما الفرق؟ المهم، اسمعيني نجاة.. سأوكل محامياً، في حالة، لا سمح الله، إذا لم يعد أبي.. تعرفين شوكت عبد الوهاب المحامي، صديقي؟».

«هذا كلام سابق لأوانه».

«هنا، في أوروبا تعلّمت أن أفكر بأسوأ الاحتمالات.. عليكِ أنتِ أيضاً توكيل محامٍ جيد».

تقطع نجاة الاتصال، وترمي الهاتف على الأريكة.. تقول عاتكة:

«أيعقل أن يفكّر هكذا؟».

تقول نجاة: «ليس وحده من يفكّر هكذا».

تقول عاتكة:

«من الدناءة الكلام عن الإرث والحاج ما زال حيّاً».

تقول نجاة ساخرة:

«نعم، وأنتِ جئتِ لأن قلبكِ يتفتت من أجل الحاج».

«نجاة، لستُ مستعدة لأكون طرفاً في صراع ديكة».

«أنتِ طرف عزيزتي».

تصيح أمينة: «ما بالكم.. دعونا نجد حلاً لمصيبتنا.. أنرسل أحداً إليهم، أم لا؟ لست مطمئنة».

تقول عاتكة ووجهها يتجهّم:

«لن تخدعينا.. تبدين أكثرنا اطمئناناً.. أتعرفين شيئاً لا نعرفه؟».

«ألا تكفّين عن نفثِ سمّكِ».

تلتفت عاتكة إلى زوجها الجالس على كرسي بلا مسند، وتقول بحدّة:

«ما لك لا تتكلم.. يهينونني وحضرتك ساكت.. إلى متى هذا الجبن؟».

يندفع عادل نحوها، رافعا يده.. من المؤكد أنه كان سيضربها لو لم يمسك به باسم في اللحظة الأخيرة..

«يا الله.. أجننتم؟».

«ستعودين غداً إلى بعقوبة».

وهي تبكي، تجري عاتكة إلى الغرفة التي خصصت لها مع زوجها في الطابق الأعلى.. تصرخ:

«لن أعود إلا في تابوت».

يسمعون فرقعة انغلاق الباب.

***

«كدتَ تضربني أمامهم».

«أنتِ تفضحيننا.. سنخسر إن لم تحذري».

«ألا تراهم كيف يكشّرون عن أنيابهم؟».

«كل شيء في وقته».

«أقسم أن لأمينة ضلعاً في المشكلة.. وكذلك هذا المسمّى أبا أمجد.. ركّز فقط نظرك في عيونهم»

«غداً سينحسم كل شيء.. سنعرف بعد أن يذهب باسم إليهم ويعود».

«هذا إذا عاد».

«يا الله.. قولي كلمة واحدة متفائلة».

«متفائلة يا متفائل؟».

زمّ شفتيه وراح يحدّق باتجاه ستارة النافذة.. اقتربت منه، وجلست إلى جانبه على طرف السرير.. احتضنته ومسدّت على شعره:

«ما لك؟ ألا يحق لنا أن نمرح قليلاً؟».

«أمجنونة أنتِ؟ ألا ترين في أيِّ حالٍ نحنُ؟»

«لم تقربني منذ شهرين.. أبسبب شبعك من تلك الموظفة القحبة في دائرتك؟».

«أنت تبحثين عن أيّ مناسبة للشجار؟»

«لا.. لا أريد الشجار.. وحتى أنني أسمح لك بأن تلعب بذيلك معها أو مع غيرها بشرط ألا تترك عائلتك.. ها أنت ترى أنني الآن أريد شيئاً آخر؟».

«ليس هذا وقته»

«حتى لما قبل سنتين لم تكن تفوِّت ليلة واحدة».

تأفف وأحاط رقبتها بكفِّه.

«أوه يدك باردة»

«اصعدي على السرير»

نزع بلوزته الصوفية ورماها نحو حافة السرير فسقطت على الأرض، وبقي بالفانيلة البيضاء النصف كُم.. ما كان يروم خلع ملابسها كلها.. هو قلما فعل ذلك في غضون السنتين الأخيرتين. ولم يجد صعوبة، وقد أعانته هي برفع مؤخرتها، في سحب ثوب الجرسيه الفستقي صعداً إلى ما تحت سرّتها بقليل.. وكالعادة لم تكن هناك أية قطعة قماش زائدة أخرى.. حدّق للحظة في عشّها الليلكي القاتم، وكانت تعرف أنه يفضِّل الإبقاء على هذه المتاهة المثيرة من الشعر الخشن الكثيف، أو أنه ببساطة لا يبالي.

جعل تفكيره لا ينصب، في هذه اللحظة، إلا في اتجاه وحيد، في مسار يمتد مثل كهف رطب حار يلجه لبضع دقائق، وينتهي..

علّ الأمر يمضي الآن جيداً.. هي على حق.. كان مجنوناً بجسدها في السنوات الأولى لزواجهما. كان يشتهيها في كل ساعة. غير أن الأمر اختلف بعدما أوقعته كتلة الشهوة الحارقة تلك، لمياء ـ موظفة الحسابات السمراء ـ في أحبولتها المحرّمة القاهرة.. النداءِ الملحاح على فراش الزوجية الذي طالما كان يتصادى في القاع من نفسه، ويفقده صوابه، تلاشى بمرور الزمن، أو كاد. وتذكّر أنه حتى في أوج تجربتهما الحميمية كان يعلق في تلك الظلمة عائماً في غيبة عن كل ما هو خارجهما.. متشبثاً بهناءة تلك اللذة المجرّدة، العارية، العمياء، العابرة، تتملكه دقائق سرعان ما تنقضي، يستحيل خلالها كما الطفل المنهمك مع لعبته التي لا يفكّر بأنها قابلة للكسر أو العطب. ولهذا كانت تناكده:

«على كيفك، آآآآآآآخ.. لن أهرب».

«لا ترفعي صوتكِ».

«آآآآآآخ.....آآآآآآآآآخ.. نعلة على...».

«أششششششش».

«أوووووووف.. لا تعض».

وغالباً ما كان ينجح في جعل تلك الكهرباء الراجفة المدهشة، في النهاية، وربما من غير أن يقصد، تجتاح ثنايا لحمها فترضى.. وحين

يهم بالقيام تشدّه إليها، وتهمس في أذنه برجاءٍ:

«ابقَ، ابقَ، اتركه فيّ دقيقة أخرى، ثلاث دقائق».

لثم وجهها، شفتيها، عنقها الطويل ولم يُثر فيه عصب واحد.

هي تعلم أنه لا عاطفة قوية تنتابه نحوها، وحتى لو جرى كل شيء على نحوٍ اعتيادي لن يشعر حيالها بالامتنان، ولن تنتاب، بعد إرواء رغبته، روحه المسرّة.. وكانت كل ليلة، في زمن هناءتهما الآفل، حين يختليان في سريرهما، توشك أن تخبره بأنها تتمنى لو كان يعشقها هي ويفعل الذي يفعله معها لأنه يعشقها، لكنها تعيد ما قالته مرّات من قبل: «أوف منك، لا تفوّتُ ليلة واحدة».

نزل بشفتيه على عنقها، وامتدت يده من تحت ثوبها إلى ظهرها، وإلى ما تحت ظهرها، وشدّها بقوة، لكن حيوانه ظلّ في سباته المغيظ.

انتزع نفسه من فوقها، واستلقى على ظهره إلى جانبها، وكان يلهث.. قالت:

«أقسم أنك لا تعاني من مشكلة حين تفعلها مع تلك القحبة».

خطر له أنه لو صفعها أو أسمعها عبارة جارحة فلربما عاطت ونبهت من في الدار فركن إلى الصمت.. وهي الأخرى لحين ما غفت لم تنبس بحرف آخر.

اليوم الخامس

ودّعوه، خلف المنزل، واقفين، بنظرات جامدة، كما لو أنه ماضٍ في رحلته الأخيرة إلى المجهول.. لم يفه بكلمة.. مشى بخطواتٍ متمهِّلة باتجاه الأشجار، وشعر في ظهره بوخزة عيونهم المصوَّبة بخوفٍ نحوه.. حافظ على إيقاع سيره حتى اختفى بين أول صفٍ من النخيل وأغصان الرمّان المتشابكة.. حاول أن يتذكّر شكل المكان قبل عشرين سنة؛ خربة الطين التي حدّدوها حيث عليه أن يقف وينتظرهم في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.. الخربة التي كانت، في يوم ما، غرفة طويلة عالية بباب خشبي أخضر متشقق، يُخزن فيها التّمر والفاكهة.. عاودته الرائحة القديمة المتخمِّرة لركام التمر الزهدي، كأنه شمّها للحظة.. أحس بشيء من البرد واختض جسمه برعشة مباغتة، ليتساءل في سرِّه إنْ لم يكن خائفاً.. يسير على أرض رطبة ويضمِّخه شذا البرتقال الناضج والأوراق الوارفة، المغسولة بماء المطر.. هو طريقه البعيد ذاته، الظليل، المتعرج والرفيع، الذي، من دوام السير، لا ينبت عليه العشب. ولكن ثمة عشب الآن.. فمذ وجد المسلّحون في البساتين، لا يجرؤ أحدٌ على الدخول.. يبدو أن

أولئك، أيضاً، قلما يطرقون هذا الدرب..

انفتح أمامه فضاء صغير، ولمح نصف جدار باقٍ من مبنى لم يعد كائناً الآن. يصل ارتفاعه إلى مستوى صدره، فتولّاه الضيق.. وقف مطلقاً زفرة حسرة، وصدره ينكمش. وكاد يفلت دمعةً اغرورقت بها عيناه. امتدت يده إلى علبة سجائره. أشعل سيجارة متكئاً على نصف الجدار في موضع تغمره أشعة الشمس.. هو ما بقي من غرفة يفاعته الآفلة.. لكأنه يسمع صياح أبيه بالعاملين، وبه مع أخوته، كي يزيدوا من همّة الشغل.. يحملون القفف المملوءة بالتمر أو بالحمضيات والرمّان، أو بفواكه الصيف.. استعاد مرأى عثرته وقد أسقط سلّة تين أسود وراح يلملم الحبات من بين أقدام من حوله وأبوه ينهره ناعتاً إياه بالمدلل الذي لا فائدة منه. وهو لا يحوز الجرأة التي تجعله يعترف له بأن السبب في عثرته زنبور أحمر اقترب كثيراً من وجهه بطنين مخيف.. استحضر على سطح خياله صورة أبيه، في الوقت الذي ستلتقي عيونهما، إذا ما سمح الخاطفون له أن يرى أباه.. ماذا سيقرأ في أغوار نظرته؛ الرعب، أو الرجاء، أو التهكم مثلما كان يلوِّن ملامحه في ساعات الشدّة، ويضفي عليه هيبة الشجاعة واللامبالاة.

خطر له أنه يرتكب فعلاً خاطئاً بتدخينه، هنا، فالمسلحون، كما قيل له، لا يحبون السجائر، ويجلدون من يضبطونه يدخِّن.. وتهيأ له مشهد جلده؛ ينزعون عنه ملابسه، ويهوون بالسوط على ظهره العاري، مكبِّرين بحماس قدسيّ، فارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة.. سحق

عقب سيجارته بقدم وركله ليختفي بين أجمة من شجيرات الشفلّح. ولكن ماذا لو كانوا يراقبونه.. ماذا لو كانت فوهات مجموعة بنادق مصوّبة، في هذه اللحظة، إلى المواضع الحساسة من جسمه.. ردّد مرتين؛ فليفعلوا ما شاؤوا.. نظر إلى ساعته.. أشارت العقارب السود على الميناء الأبيض إلى الحادية عشرة ودقيقتين، ولم يكن على يقين من أن ساعته متقدمة بالوقت أو متأخرة قليلاً.. دار حول نفسه ليستكشف ما يحيطه علّه يراهم قادمين.. لا شيء سوى الأشجار وهسيس الهواء المثلج بينها. ونصف الجدار يصدّ بعض الهواء عنه ويمنحه فرصة أن يتدفأ بحرارة الشمس.

تصير الشمس عمودية؛ لا أحد يأتي.. ذهنه مشوش، ولا يقدر على التفكير بما عليه أن يقول لهم حينما يتكلم معهم.. نسي كل ما صاغه من عبارات في ذهنه ليلة البارحة قبل أن يغفو.. القلق يثقل روحه حيناً، وحيناً يدهمه اللااكتراث.. يخرج سيجارة أخرى ويدخّن من غير أن يلقي بالعقب بين شجيرات الشفلّح الكثيفة..

في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر، يترك أعقاب أكثر من خمس عشرة سيجارة حول نصف الجدار، مع علبة فارغة، ويقفل راجعاً.

***

«المهم أنه عاد سالماً».

قال الشيخ رفعت، وغمس قطعة من رغيف الخبز في مرق البطاطا وألقاها في فمه ولاكها.. سألت أمينة:

«من يرغب بشريحة أخرى من اللحم؟».

لم يجبها أيٌّ منهم.. قال عادل: «إذاً لم تر أحداً هناك».

رمقه باسم بإنكار وتناول ملعقة من ماعون السلطة.. قالت عاتكة:

«ألم يقل مرّات؛ لا أحد.. لم يكن هناك أي شخص، أي حقير».

قالت نجاة:

«ربما كان شخصًا يختبئ وراء كومة من الدغل، وفوجئ بأن من أتى هو باسم وليس عادلًا.. هم كانوا بانتظار عادل».

قالت عاتكة ساخرةً:

«ولِمَ لم يُظهر ذلك الشخص التحفة نفسه؟ لِمَ لم يمسك بباسم ويقول له؛ رُح وهاتِ لنا عادلًا؟ باسم ليس طرزانًا كي يخافوا منه».

قال الشيخ رفعت:

«عاشت يداكِ أمينة، نكهة الرز شهيّة، واللحم مطبوخ بنَفَسٍ طيّب».

ردّت أمينة: «ألف عافية».

غادرت عاتكة المائدة، فكادت أن تُسقط كرسيّها وهي تتركه..

وراح عادل ينقر بالملعقة على حافة الماعون الخزفي أمامه.. حثّته أمينة على تناول طعامه، قال: «نفسي مسدودة».. قال باسم:

«سنفهم منهم حين يتصلون عند الرابعة».

وأشعل سيجارة.. قالت أمينة:

«أنت الآخر لم تأكل ما يكفي».

قال، وهو يرفع رأسه وينفث الدخان باتجاه السقف:

«شبعت».

***

«أنا أعيش حياتي بهاجسِ رحّال.. أشعر دائماً بأني لن أبقى».

«من حسن الحظ أنكَ في العراق الآن».

«ربما من سوء الحظ».

تضحك من القلب.. ضحكتها ترنُّ بلطافة وصفاء.. يضحك، ليس من القلب.. ضحكته حزينة، خابية.

«ما الذي تبحث عنه؟».

«أمور كثيرة لكانت تتغير لو كنت أعرف».

«قد تثبِّتكَ امرأة ما، يوماً ما، في مكان ما».

«أتعتقدين؟».

«مَنْ غيرُ النساء خليقات بصنع المعجزة.. أليست هذه عبارتك؟»

«أقلتُ هذا؟ أين ومتى؟».

«في مسرحية (الفراشات تُحدث الزلزال).. مسرحيتك المطبوعة في كتاب، وقد اقتناه الحاج من مكتبة في بعقوبة».

«أحقاً؟ يا لذاكرتكِ».

«أتحلم بامرأة، الآن.. تلك الأوكرانية، لينا العراقية، أو..؟».

يجلس.. يبدو كأنه بوغت بسؤالها.. تسير هي نحو النافذة.. تزيح الستارة فتُضاء الصالة بنور الشمس.

«هو الحلم الذي أربك حياتي».

من غير أن تلتفت، تقول:

«الواضح أنك لم تلتقِ بواحدة ظننتها هي؟».

«لو تدرين كم هي مساحة الوهم التي تهتُ فيها».

«لأن هناك أكثر من واحدة».

«بل هي واحدة، في كل مرّة.. سأبوح لكِ عن امرأة أخرى.. كانت رحّالة على طريقتها.. مغربية.. التقيتها في ملقة الإسبانية.. كانت مثلي على عجلة من أمرها.. أخبرتني أنها هاربة.. لم أسألها ممَّ؟ وكأنني

أعرف.. سألتها؛ إلى أين، ولا أقصد المكان؟ قالت أنت الوحيد الذي سألني هذا السؤال بدلاً من؛ من أين جئتِ؟ إنه يا صديقي سؤال لا إجابة له».

«كيف عرفتَ أنها هي».

«قد أكون توهّمت.. هكذا.. في تلك الآونة صارت هي.. تيار الشعور في داخلي أعلمني.. أمضينا أسبوعاً ربما هو الأروع طوال العشرين سنة الأخيرة من حياتي قبلها، وذات صبيحة استيقظت ولم أجدها».

«وحتى من غير كلمة وداع».

«تركت عبارة غامضة على ورق مقوى مقتطع من علبة سجائرها؛ (بوصلةُ أحدنا تقرأ بشكل خاطئ، هذا قدرنا)».

«ماذا؟ أكانت غريبة الأطوار؟».

«لعلّني أنا كنت كذلك.. من يدري؟».

***

مع أول الرنين الحاد للموبايل قاموا.. ضغط أبو أمجد على زر الاتصال ورفع رأسه

«ألو..».

«.....».

أدار عينيه فيهم ووجهه ممتقع.. قال بنبرة استسلام:

«مقبولة منكم».

«.....».

«نعم، آسفون.. قالوا باسم مثقف ويستطيع الكلام معكم بشكل أفضل.. والله هذا ما حصل.. نعم، تريدني أن أخبره أنه جبان».

لف أبو أمجد عباءته حول جذعه.. حدّق في وجه عادل وقال له بانفعال: «الجماعة يقولون أنت جبان، وبإمكاننا أن نخطفك من بين أحضان امرأتك هذه الليلة».

عاد وألصق الجهاز الصغير بأذنه ثانيةً:

«سمعتموني.. قلت له هذا».

جلس عادل على الأريكة، وإلى جانبه جلست زوجه بفكٍ متهدل.. وبقي أبو أمجد يستمع إلى ما يخبره به الرجل في الجانب الآخر.. بعد دقائق ناول الجهاز لباسم:

«يريد أن يكلّمك»

غمغم باسم ببعض العبارات.. تعكّرت قسماته.. مشى نحو النافذة.. سحب طرف الستارة المخملية قليلاً ونظر عبر الزجاج إلى عمق السماء.. أبصر نجمة مبكرة تختلج وسط بركة هائلة من زرقة آيلة إلى الاسوداد.. همست عاتكة في أذن زوجها: «إنهم يشتمونه».

هز الزوج رأسه وبدا هلعاً.. استدار باسم وألقى الجهاز على الطاولة وقال:

«كانوا يراقبونني وأنا هناك عند الخربة أنتظر.. وثلاث قناصات مصوّبة إلى رأسي العلماني القذر.. تصوّروا.. يا للمصيبة.. من أين لهم هذا القاموس الطافح بالخراء.. شتائم ما سمعت بمثلها أبداً.. لا أدري لماذا يكرهون عادلاً إلى هذه الدرجة.. وفي النهاية لم يقولوا شيئاً محدداً».

«أنا أيضاً لم يقولوا لي شيئاً محدداً.. شتموني وشتموا عادلاً.. غير أنهم لم يعطوني موعداً آخر للاتصال، أو فيما إذا كانوا مصرّين أن يذهب عادل إليهم».

«لن يذهب.. سيقتلونه.. هؤلاء مجرمون.. إرهابيون مجرمون».

«هششششششششش.. للحيطان آذان يا مخبولة.. بسببكِ أنتِ سيقتلونني».

«هكذا إذاً.. بسببي أنا.. أنا التي أخاف عليك».

«يا جماعة.. نحن في ورطة، وعلينا أن نهدأ».

قالت أمينة: «يبدو أنهم يتلاعبون بنا».

قال الشيخ رفعت: «لا وقت لدينا».

قالت أمينة: «لديهم الوقت كله.. ماذا وراءهم».

قال الشيخ: «استغفر الله».

قال باسم: «لماذا لا نقترح إذا ما اتصلوا أن يذهب الشيخ رفعت إليهم ويفاوضهم.. لغتهم مشتركة».

صاحت نجاة: «الشيخ ليس من صنفهم.. سيذبحونه.. لن يذهب.. على جثتي».

«وإذاً ما الحل؟».

***

«بدأت اللعبة تستهويني».

«كيف؟ أية لعبة؟»

«هناك أمر ما خفي.. سرّ.. وإلا كيف تريدينني أن أصدّق هذه المسرحية الهزلية».

«لم أفهم».

«حكاية اختطاف أبي.. أن يطلبوا عادلًا لا غيره ليفاوضهم.. لو كانوا يريدون المال لطلبوه.. ماذا يهم إن كان من يتكلمون معه عادلًا أو ممثلًا من الأمم المتحدة.. ثمّ لماذا عليهم أن يفاوضوا أي أحد وجهاً لوجه.. عندهم الموبايل، وهم بارعون في استخدام أجهزة الاتصال الحديثة».

«أخشى أن نيّتهم قتله؟».

«عادل ليس شخصية مهمة بأي شكل كي يكون مطلوباً لهم.. موظف متوسط في دائرة اعتيادية مثل آلاف آخرين.. لو كانوا يرومون قتل شخص أهم سينشغل الإعلام بمقتله لقتلوني أنا.. لا أقول إن لي شأناً خطيراً لكني كاتب ومخرج وممثل مسرحي، ولي مقالات في الشأن السياسي من النوع الذي لا يعجبهم.. استبعد هذا الاحتمال تماماً».

«وأي احتمال ترجّح؟».

«هي لعبة، لست أدري ما تكون في حقيقتها».

«إن لم تكن تدري ماذا تكون في حقيقتها فكيف تقرر أنها لعبة؟».

«ما أنا متأكد منه الآن هو أن الأمر ليس كما يُصوّر لنا.. هناك ما هو خفي، وسينكشف».

* * *

«أين عادل وامرأته؟».

«يتعشيان في غرفتهما».

«والسبب؟».

«لا أدري».

علّقت نجاة:

«خفةً وراحة».

قالت أمينة:

«كفانا مقليّات.. الدهون قاتلة.. هذه الليلة الكبّة مسلوقة، والمعكرونة بزيتٍ قليل».

قال باسم:

«سأكتفي بالمعكرونة مع سلطة الخيار».

سأل الشيخ رفعت:

«ألم يحن موسم الكمأ؟».

ردت أمينة، وهي تجلس:

«أتوقّع بعد أسبوعين.. ما شاء الله، رعود السنة كثيرة».

تمتم الشيخ رفعت وهو يمضغ لقمته:

«سبحان الله».

***

«لم أعد أبالي».

«هذا ما انتهيت إليه أنا أيضاً منذ زمن بعيد».

«الجشع والأنانية قاتلان حتى أكثر من الطاعون».

«الطاعون وقد تفشى.. أنا أشير إلى فقدان القدرة على التفهم

وعلى الحب».

«أجل، هذا هو ما يحدث.. أوافقك».

«حين لا يستطيع المرء أن يحب سيكره نفسه في النهاية».

«لهذا صار ما حولنا بلا لون.. كل شيء بات باهتاً ومقرفاً».

«كأنكِ تعنين القسوة»

«القسوة.. بالتأكيد.. القسوة.. لا كلمة أخرى أدق يمكنها أن تصف وضع البشر الآن، هنا».

«الآن، في كل مكان».

«يااااااه.. إلى هذا الحد؟».

«حروب النهايات.. لم يتحدثوا عن النهايات في أي عصر مثلما يتحدثون عنها الآن».

«بدأا.. أتسمعهما؟ حفلة كل ليلة».

«آ.. سأصعد».

«سأدخل غرفتي.. وأعرف أنهما لن يدعانني أنام».

***

«آه..».

ما كانت تتأوه وإنما أجابتْ على اقتراحه وفعلتْ ما أراد.. واقفاً

خلف انحنائها قال: «هكذا أحسن.. كي أسيطر». أشارت إلى أن هذا الشكل من التموضع حيواني صميم فوافقها متجاهلاً نبرة الإنكار المغناجة في صوتها.. ران الصمت مديداً واعداً ومقلقاً، وسمعت للمرة الأولى ربما، مذ جاءا إلى هنا قبل أيام، التكتكة الموقّعة لساعة الحائط الدائرية الزرقاء. كانت مثل حشرجة طفل مريض. لم يلحظ هذا، وكان على وشك أن يخبرها بأن ما سينغمران فيه يُحرِّر الجزء الأحلى فيهما. لكنها قطعت خيط تفكيره الواهن لمّا أوصته بشبه أمر: «على مهلك»، فقال ساخراً: «لا أقدر»، فردّت على سخريته بمثلها فيما الهواء ما وراء النافذة يعبث بأشجار الليل: «كلما بدأتَ يروح عقلك يصغر ويصغر إلى أن يصير بحجم حبة السمسم». ومن خلال أول اللهاث أخبرها كأنه يؤكد حقيقة فيزياوية قاطعة: «مع هذه الحالة لا تحتاجين العقل.. المهم أن يندفع الدم، وتتوسع الشرايين». فعادت بنبرة شبه الأمر توبِّخه: «أووووف.. حبّة حبّة»، وأوشك أن يقول شيئاً عن الضيق في ذلك الدرب العضلي العميق لولا أنها شخرت من وجع، فحذّرها ألا ترفع صوتها كي لا يسمعوهما، فعادت تقول: «حَبّة حبّة» فخيّرها بين الاستمرار والتوقف فصرَّت على أسنانها وقالت: «لا» وشتمته، فاقترح مرحاً أن تتمادى في الشتيمة، فتمادت. وكان ينشرح وتهيج روحه لما تُردد أسماء حيوانات تنعته بها فيجاريها بمثلها. إلى الحد الذي يكون معه بذيئاً جداً، فتألف نفسها تستسيغ بذاءته لتتجرع الوجع بمتعة تُنعش روحها وأعضاءها..

شتائم لم تكن حتى لتخطر على بالها قبل الاقتران به.. وهنا تكسّرَ بترددات أحاسيسها المختلطة بين الرضا والاهتياج والخوف فحيح الريح الناهضة تلطم النافذة، فرأت أن تشمل بوقاحتها الثائرة ناعتةً أخته، وقريباته المصونات، بأقذع الكلام، فضحك وهمس بابتهاج: «حقيرة، بنت كلب».. والسرير راح يئن بفعل قبضتيها المشدودتين على طرف الفراش تتحرّكان بإيقاع تموّجه وهما (هو وهي) كبندول غريب مركّب يتسارع إلى الأمام وإلى الخلف، ومعها تفتح هي عينيها وتغلقهما وهو أيضاً في الاتجاه عينه. والساعة تتكتك فتسمعها، أما هو فغير متنبه إلا لتوقيتات دمه المنتظمة على وفق ما يرتقب وينال من مسرّات جهنّمية مظلمة. لكنه يفطن في لحظةٍ إلى أنها لا تحترس فتطلق من حنجرتها ما يجعلها متكيّفة بأمان عند حصيلة التضاد بين وجع جسدها ولذته الباهرة. وبخبث يشير إلى جارتهما التي لعلّها تصغي عبر الحائط فتطلق كما توقّع اللفظة الأكثر فحشاً في قاموسهما فيصدر كسرةً من ضحكة يخنقها ذلك الطوفان الساري الصاعد فيه. ويرغب أن يخفف من غلواء ما يحدث ليؤجل لحظة انفلاق زَبَده في بطنها، طالباً بإغراء أن يغيّر من ممر التحامهما إلى حيث الأسفل قليلاً، فترفض مذكّرة إياه: «لا.. في المرة الثانية إفعل ما تشاء.. هكذا اتفقنا»، وتتلاشى تكتكة الساعة حين تفجُّ الريح ويشخر هو، وبالكاد تسمعه يقول من غير أن يقصد الكلمة بمعناها العائم الدقيق: «ستُميتينني».

***

تهيأ لها أنها أضواء بروق، تلك التي راحت ترشق النافذة المرّة تلو المرّة.. وترقّبت سماع دوي الرعد.. كان الشيخ رفعت يشخر بعد مضاجعتين جنونيتين، فيما هي داهمها الأرق، ولم تُعنها الخفّة التي تستشعرها في جسمها على أن تغفو.. كانت مرتوية حدّ الاكتفاء، لكنها سادرة في التفكير. وما كانت تفكّر بشيء محدّد.. تنقّل ذهنها، بلا هوادة، لأكثر من ساعة، بين شظايا من ذكريات وآمال، وأسرار حميمة.

لم ينفجر الرعد، وبدا هدوء الليل غريباً، مجللاً بالنُذر.. وخلا صوت شخير الرجل المتعب إلى جانبها، كان كل شيء آخر في هذا الليل خامداً. خطر لها أن تنزل من موضعها على السرير وتنظر من النافذة.. اعتراها نزرٌ من الخوف. ترددت وهي واقفة أمام الستارة، تمسك بطرفها ولا تجرؤ على سحبها. لكنها بعد دقيقة أو اثنتين سحبتها قليلاً.. فُغر فمها، ومن حنجرتها صدرتْ صرخة مكتومة.. جعلها الفزع تحسّ بألم واخز في رأسها ومعدتها.. تخدّرت أطرافها.. تراجعت خطوات.. أوقعها ارتجاف ساقيها المرتبكتين على أرضية الغرفة.. أمسكت بحافة السرير وقامت.. هزّت الجذع الضخم لزوجها، وعجزت عن إطلاق أي صوت.. وحتى حين فتح الرجل عينيه وجلس وسألها: «ماذا هنالك؟». اكتفت بهزّ رأسها وفمها ما يزال فاغراً. وعيناها المذعورتان تبغيان أن تومئا باتجاه النافذة، والبستان. كان الضوء الشحيح النافذ من مستطيل الزجاجة العلوية الصغير للباب المطل على الممر كافياً ليرى الشيخ رفعت كم كانت

ملامح امرأته شاحبة، وجامدة من الذعر.

وظلت تميّل رأسها وتشير بذقنها إلى جهة واحدة وكأنها تقول له؛ قم وانظر.. نهض قافزاً من السرير، وأطل برأسه من خلال الفتحة الصغيرة التي تركتها زوجه لمّا أزاحت الستارة.. كان المشهد إزاء باصريه وكأنه من فيلم رعب؛ تحت شجرة فحل التوت تابوت أسود بلا غطاء، يتمدد فيه أحدٌ ما يغطيه قماشٌ أبيض. ولم يميّز الشيخ فيما إذا كان القماش ذاك كفناً أو جلباباً، وإنْ كان هناك رأسٌ أو لا، وفيما إذا كان الراقد في التابوت حيّاً أو ميتاً.. فالتابوت موضوع في مسقط ضوء شحيح يسيل من بين أغصان شجرة الرمّان القريبة، كما لو أن مصباحاً يدوياً عُلِّقَ هناك.

«قتلوه».

كانت تلك الكلمة الوحيدة التي استطاعت أن تنطق بها بنبرة مخنوقة. ونبرته أيضاً أفصحت عن ارتباك ووجل وهو يلتفت إليها ويقول:

«لا نعرفُ بعدُ أي شيء».

بعد عشر دقائق رأى جميع من في الدار مشهد التابوت تحت شجرة فحل التوت.. انقطعت الكهرباء.. ومن ثمّ كانوا يدورون حول النور الكامد للفانوس الموضوع على طاولة خشبية في الصالة.. بدوا كجماعة ممسوسة تتخاطف ظلالها على الجدران.

«يقصدون إخافتنا».

«لعلّه هو مَنْ في النعش».

« ومن يكون غيره؟».

«مع الفجر سنعرف كل شيء».

«ربما يكون مفخخاً».

«ليسوا بحاجة إلى تفخيخ جثة.. لو أرادوا لقتلونا بسهولة».

«بصوت انفجارٍ عالٍ يرعبون البلدة كلها».

«يمكنهم تفجير الدار إن أرادوا».

«أنا أرتجف».

«الصالة باردة، لو تشعلين المدفأة يا أمينة».

«ماذا لو نبلِّغ الشرطة؟».

«إذاً لوجدوه عذراً كافياً للانتقام منّا».

«كأنكَ في أدمغتهم».

«أعرف كيف يفكِّرون».

«لنتصل بأبي أمجد».

«وماذا يمكنه أن يفعل ذلك الدعيّ الماكر.. كلما رأيته شعرت أنه

يخفي شيئاً سيئاً».

«لن أندهش إن ظهر أنه يعمل لصالحهم».

«إن بعض الظنِّ..».

«أنا خائفة».

«لستِ وحدكِ حبيبتي.. كلّنا خائفون».

«لا تبدو مكترثاً يا باسم».

«ماذا تسمّون هكذا مصيبة.. كوميديا سوداء؟».

«إنه يضحك».

«لست أضحك.. لستُ مبتهجاً.. أنا حائر».

«حائر؟. يا الله».

«اعتقدت لوهلة أن في ذلك التابوت واحداً منّا نحن.. لكننا ولله الحمد موجودون كلّنا هنا.. تصوّروا لو كان الأمر كذلك».

«المسألة في غاية الوضوح.. كان هدفهم أن يقتلوه، وها هم فعلوا».

«حكم سابق لأوانه».

«تلك الأضواء على النافذة، ظننتها بروقاً».

«أنا أيضاً شعرت بالضوء على النافذة.. خلتني أحلم».

«هذه ليلة صافية.. السماء تكتظ بالنجوم كأنها مئات آلاف الفراشات المضيئة».

« المآسي تُلهم لقول الشعر».

«لعلها كوميديا.. يصمِّمون فصلاً كوميدياً ليكسروا رتابة حياتهم.. لعل بطونهم توجعهم الآن من الضحك».

«وهذا الفصل ماذا تسمّونه؛ الذروة؟».

«يسمّونه العقدة».

«أنا لا أسمّيه أيّ شيء.. لا عقدة ولا ذروة في مسرح اللامعقول».

«هذا إذا صح افتراضك بأنهم يهزلون».

«يا لهذا البطر.. نحن في مصيبة وأنتم تناقشون شؤون الشعر والمسرح».

«عودوا إلى أسرَّتكم.. الكلام الآن لا فائدة منه.. سأخرج أنا وحدي في الصباح لأعاين التابوت.. إن انفجر ومتّ فأنا في الأقل لست مسؤولاً عن عائلة».

اليوم السادس

الساعة تعدّت منتصف الرابعة.. الدار سابحة في غلالة من الخوف والظلام.. ظلّوا على أسرتهم، مضطجعين على ظهورهم يحدِّقون في السقف تارة، وتارة يغلقون عيونهم يتمنون أن يغيّبهم النوم.. فلربما هو محض كابوسٍ ما حصل.. لم يقم أي منهم لينظر ثانية من النافذة إلى مشهد التابوت تحت شجرة فحل التوت.. ترامى صوت أذان الفجر.. وحده الشيخ رفعت نهض وخرج إلى الحمّام ليتوضأ.. وحين انكشف ضوء النهار أخيراً كانت عاتكة أول من تزيح ستارة نافذتها..

عاطت..

كلهم، باستثناء باسم، نظروا عبر زجاجات نوافذهم.. كان التابوت قد اختفى من تحت شجرة فحل التوت.

***

«قتلوه، هذا ما أرادوا أن يخبرونا به.. قتلوه.. أبوك الآن ميت وعلينا أن نتصرف على وفق هذه الحقيقة».

«حقيقة؟ يا لكِ من لئيمة متبجِّحة وحمقاء.. لو كان ميتاً حقاً لتركوه، إذ لِمَ تراهم يحتفظون بجثة؟».

«لا نعرف نواياهم، علينا أن نقوم بما يجب.. أن نؤكد موته رسمياً، ونوزِّع الإرث ونغادر هذه البلدة التعيسة».

«تعتقدين أن الأمر بهذه السهولة.. كيف تثبتين واقعة موته من غير أي دليل مادي؟».

«التابوت، والكفن..».

«أيتها الغبية.. لا التابوت الذي اختفى ولا الكفن يثبت شيئاً.. لن تحصلي على شهادة وفاة من غير جثة نصلي عليها وندفنها».

«رُشًى معتبرة لبضعة إداريين فاسدين، ولن نكون بحاجة إلى جثة متعفنة».

«أخرسي، لا تنسي أنكِ تتحدّثين عن أبي».

«أبوك رحل.. اسمعني جيداً.. دعنا نفكر بعقل».

«عقلكِ ليس في رأسكِ.. إنه دوماً في موضع آخر».

«لا تكن بليد الذهن.. أنا متأكدة أن نجاة تفكِّر مثلنا، ومعها ذلك الشيخ اللعوب.. لنباشر بتحديد الأملاك وتقويمها».

«وماذا عن أمينة وباسم؟».

«أمينة معها الكنز.. أما باسم فلن يمانع بالحصول على ثروة تخلّصه من حالته المزرية».

«لم يعد لأي شيء طعم.. أفكر بالعواقب.. أنا يائس».

«فقط لو تطرح الفكرة ستجد آذاناً تصغي إليك باهتمام.. سنأخذ حصّتنا، ونبيع بيتنا في بعقوبة ومعاً نطلب الإحالة على التقاعد من الوظيفة.. عندها سنخرج من جحيم البلاد.. أختي سلوى في تركيا..».

«أختكِ سلوى؟ وكيف تعتقدين تعيل زوجها العاجز هناك؟. ما الذي لديها للبيع؟».

«لا تتكلم بدناءة عن أختي».

«قولي لي؛ ما الذي تفعله هناك بمؤهلاتها المعروفة غير أن....».

«كان يحق لك أن تتكلم هكذا لو كان أهلك من الشرفاء جداً».

«أغلقي فمكِ، حقيرة».

«ترفع يدك عليّ.. اضرب، وسأجعلك تندم».

يجلسان متجاورين على طرف السرير.. أرجلهما متدلية وعيونهما إلى جهة النافذة.. تمرّ الدقائق ولا يتفوهان بكلمة واحدة.....

«نحن نفقد أعصابنا».

«من الخوف».

«أجل.. من الخوف».

* * *

«هو لا يتركني أبداً».

«مستحوذ على تفكيركِ».

«وعلى أحلامي أيضاً».

«يتهيأ لكِ أنه سيفاجئكِ ذات يوم».

«دائماً أراه.. أتخيّله يدخل البلدة بشعر طويل مغبرٍّ، يرتدي سترة جلدية، وحقيبته معلّقة على كتفه».

«أعتقد أنه ما زال شاباً في نظركِ».

«أبداً لا يكبر.. هو هو منذ ربيع العام ١٩٧٤.. عمره ستة وعشرون عاماً».

«كيف اختفى فجأة؟».

«أعدنا الحكاية مئات المرات».

«هل فكّرتِ أن يكون قد هاجر إلى بلاد بعيدة».

«مستحيل.. ولماذا يفعل؟».

«احتمال.. مجرد احتمال.. من يدري؟».

«ما أنا متأكدة منه أنهم غيّبوه».

«يقولون أنه كان ناشطاً.. واعداً أكثر من الآخرين».

«في المرّة الأخيرة أعطاني رواية (الأم) لمكسيم غوركي.. ما زلت أحتفظ بتلك النسخة وأعيد قراءتها».

«١٩٧٤ لم تكن سنة سيئة.. كانت هناك الجبهة».

«كما قلت؛ لم يكن مثل أيٍّ أحد».

«أعرف أنه سافر إلى بغداد.. وهناك ربما».

«هذا ما قاله أبوه.. خرج بحقيبة فجراً، ولم يعد».

«ألم يبحثوا عنه؟».

«بحثوا.. وما زلت أبحث.. بعد سقوط حكم صدام ألححت على أخيه للبحث عنه.. قيل أن هناك سجوناً سرّية تحت الأرض».

«كثيرون اختفوا بتلك الطريقة وصُفُّوا».

«نعم، ولكنَّ عقلي لا يتقبل فكرة موته.. هو في خاطري لا يموت.. قل؛ مجنونة».

«لا... وصوره؟».

«إنها معي، بل أغلبها.. في بيت أهلي.. في غرفتي التي ما زالت

لي».

«من يعيش مع أمّكِ هناك».

«أخي عبد الله، هو الأصغر بيننا كما تعلم.. له بنتان وولدان.. زوجته ابتسام ابنة عمّي».

«أذكر أنَّ صدمتَكِ كانت رهيبة».

«أنا ميّتة منذ ذلك الحين».

«ولكن، أليس الصحيح هو أن نستمر؟».

«لم أمتلك مثل هذه القدرة.. افتقد إلى الشجاعة».

«كنتِ دائماً في نظري الإنسان الأكثر شجاعة الذي قابلته في حياتي».

«هه.. ألم تجع بعد؟».

«لِمَ لا؟.. دعينا نفطر».

***

يتحلقون حوله في باحة المسجد. يقف مهيباً بوجه طافح بالنعماء، تفوح منه رائحة عطر إرماني، وبرفقته أبو أمجد الذي يحاول إبقاء جذعه مستقيماً، قدر ما يستطيع.. تتلامع نظرة الشيخ رفعت المصقرية. تتنقل بين وجوههم المستبشرة.. ينعته واحدٌ منهم بالرجل المبارك،

فيهزُّ الآخرون رؤوسهم برضا.. شاب من أقاربه الأبعدين يهمّ بتقبيل يده، وكهل ضامر القدّ يبوس طرف عباءته.. ابتسامته خفيفة، تزيد وجهه اللحيم تورّداً، وخرز المسبحة الطويلة، المطعّمة بالفضة، تتقافز بين أنامله بمهارة. يسألونه عن غيبته التي طالت عن البلدة، وأحواله. إجاباته موجزة حيية خافتة. مع جلال التنغيم الشجي لتلاوة الملا عاصم يهرِّب لهم صورة عن نفسه؛ خاشعة مطمئنة. يقبل نحوه الشيخ علي عثمان متبسِّماً بذراعين مشرعتين.

عباءة الشيخ علي بيضاء حليبية. بها يشبه الإله في لوحة (خلق حواء) لمايكل أنجلو.. عباءة الشيخ رفعت كحلية بحواف مذهّبة. عباءة أبي أمجد الذي يتبعهما، وهو يظلع، في الرواق، بلون البن المحروق.

يتنحى القاعدون ليمر موكب المباركين بنظافتهم الفوّاحة برائحة الجنان.. الشيخان وخلفهما أبو أمجد في الجامع، وهذا ما يزعجه أكثر من أي شيء آخر، بعدما يخلع حذاءه الذي يعلو الفردة اليمنى منها على اليسرى بسبعة سنتمرات يُفتضح الفرق في طول ساقيه.. يتراجع اثنان من مصلّي الصف الأول ليوسِّعا لهم.. يجلس الشيخ رفعت وأبو أمجد، وقبالتهم يتربع الشيخ علي عثمان، وقفاه إلى المحراب.. رؤوسهم تتقارب وهم يتهامسون.. لابد من أنهم يخوضون، على وفق حدس الفضوليين حولهم، في موضوع اختفاء الحاج إبراهيم. ولن يكفّوا إلا مع أذان الجمعة الأول.

في خطبته الصاعقة العصماء سيعلي الشيخ علي عثمان من نبرة النذير والوعيد بحق الساهين والمارقين والكافرين. وبلطافة، قبل أن ينتهي، سيرحِّب بالذي شرّفنا بحضوره في هذه الجمعة المباركة؛ سليل الصالحين الطاهرين الأتقياء؛ الشيخ رفعت ابن الذي لن ننساه الشيخ عبد المهيمن رحمةُ الله عليه ورضوانه.. وسيقول إنه طلب من الشيخ رفعت أن يخطب ويؤم المصلين بدلاً منه «لتتضمخ بنفحاته القدسية، لكن الشيخ رفعت بتواضعه الجم شكرَ واعتذر».

***

«كأن لم يتغير شيء»

«ولن يتغير بسهولة»

«أجدك محبطاً.. أعتقدت أنك ستمنحني بعض الأمل.. الآن، العدوى تنتقل لي»

«نحن منشبكون بإشكاليات التاريخ يا أمينة.. أمسنا سيبقى يطاردنا.. لن ننسلخ منه حتى وقت طويل.. فما حصل ما زال أثره مستمراً.. الإنسان يمكن أن يستبطن ما يكره، ما اضطهده وقسا عليه.. يتلبسه على الرغم منه.. الثورة ليست حركة زمن قصير كما توهّمنا.. إنها تتطلب عشرات السنين.. ما حلمنا به قد يبصر تباشيره أحفادنا بعد قرن أو أكثر. لأننا بشر ولسنا أية موجودات أخرى.. التاريخ يا أمينة يقاوم أحلامنا من حيث لا نعلم».

«تبدو يائساً.. هذا ما لم يخطر لي أبداً».

«لا يتعلق الأمر باليأس أو بالتفاؤل.. ولا دخل لأمزجتنا وحالتنا النفسية بما يحدث حولنا.. كي يحدث شيء ذو اعتبار لابد من عمل جبّار ومنظّم وطويل، لسنا مهيئين له حتى هذه اللحظة».

«في ذلك اليوم وأنا أرى تمثاله على شاشة التلفزيون يسقط عن منصته العالية قلت جاء الخلاص».

«أتعلمين لِمَ نفشل دوماً. لأننا نريد أن نبلغ النهاية التي تتطلب حيوات كثيرة بنصف حياة، بربع حياة، بسنوات قليلة.. لا نفكر بالسير المحسوب وإنما بقفزة مستحيلة.. ما نستطيع أن نفعله هو أن نخطو خطوة، بضع خطوات على الطريق، ثم يأتي آخرون ويكملون خطوات أخرى، وهكذا.. نحن لا نقدِّر ما يمكن أن يعوِّقنا.. وما يحصل أننا لا ننجز أية خطوة.. وفي لحظة تجعلنا الصدمة نرتد خائبين حتى عن النقطة التي كنا نقف عندها.. التاريخ يخذل، ويضحك على مَنْ لا يفهم روحه».

***

«طالما أننا لم نسمع صوته حتى هذه اللحظة، وطالما لم يخبرونا بشيء واضح فهذا يجعلني أعتقد أنهم قتلوه»

«المسألة كلها مشوّشة ومريبة.. وليس لدينا حلٌ من أي نوع»

«لماذا لا نقترح عليهم مبلغاً جيداً بشرط أن يعلمونا بمصيره.. إن كان ميتاً فليعطونا جثته لندفنها، وإن كان حيّاً فليطلقوا سراحه، إذ ماذا يفيدهم شيخ يقترب عمره من الثمانين».

«أولاً إذا كان هدفهم المال فهم لا يستحيون من أن يطلبوا.. ثانياً لنفترض أنهم وافقوا فمن أين ندفع لهم».

«قد تكون عند أمينة ما يكفي....».

«وإن لم يكن.. وإن رفضت».

«نشترك كلنا في جمع المبلغ، ومن ثم نقتطعه من الإرث وكلٌ يأخذ ما له قبل التوزيع الشرعي»

«وإن لم يكن ميتاً.. إنْ أرسلوه لنا حيّاً فكيف يا ترى، ساعتها، نسترد أموالنا؟».

«لديه أكثر من ٢٠٠ مليون دينار في المصرف».

«ما أدراك؟»

«أعرف.. لي مصادر معلوماتي المؤكدة».

«قد تكون على حق، لكن ما فاتك أن أبي لن يعطينا فلساً واحداً.. أنت يا شيخ رفعت ربما تعرف كم يملك أبي، لكنك لا تعرف معدنه.. لا تعرف كيف هي علاقته بفلوسه».

«لابد من أن نجد طريقة ما لإنهاء هذه المشكلة.. فليس من المعقول أن نبقى في هذه الدوامة إلى الأبد».

«أتسمح أن أسألك؟ لماذا تجعل من نفسك طرفاً منشغلاً بمشكلتنا؟ لا تقل أنه والد زوجتكَ»

«أمن الأخلاق أن أترككم وأغادر؟».

أطلق عادل ضحكة طويلة، وقال:

«أذكر عبارة من فلم.. القصة طويلة.. كان هناك شيء خفي.. قال الذي يعرف لآخر: أبحث عن مسار المال.. السر في المال.. لا أظنك بقيت إن كان أبي مفلساً».

بوغتا بدخولها الصالة.

«وأنت، أهو حبّك لأبيك ما يجعلك تبقى؟ وإذاً لكنت ذهبت أنت إليهم لإنهاء المشكلة بدلاً من أن ترسل أخاك.. لا تبع أخلاقيات لن يشتريها منك أحد لأنها مغشوشة».

وثب عادل عليها، تراجعت وعاطت.. وكان قريباً جداً منها حين أمسك الشيخ بيده الممدودة ودفعه بلطمة في صدره:

«لا ترتكب هذا الخطأ وإلا جعلتك تندم».

«ستدفع الثمن.. أعرف نواياك كلها.. أعرف ماذا تحت جبّة الرياء هذه».

«سأغادر غداً».

«لن تغادر إلى أي مكان.. لن تتركني لأنيابهم المكشّرة».

«أنتما الحيّتان المكشِّرتان».

تدخل أمينة إلى الصالة بعينين محمرّتين.. جميعهم يصمتون:

«أجننتم؟».

***

«أنتِ لا تصغين لي».

كانت خارجة من الحمّام، وكان يهمُّ بالدخول إليه.. وقفا في الممر الخالي.. هو لا يهتم، هي تتلفّت بوجل.. قالت هامسةً:

«لا شيء يردعك».

«أقدِّر ما لديكِ».

«مجنون، مختل».

«لا أستطيع نسيان طعم تلك المرّة.. كنتِ هائلة».

«عندك امرأتك.. ما لها؟ ألا تشبعك؟».

«لستُ من نوع الرجال الذين يكتفون بامرأة واحدة. وأعرف أنكِ مثلي».

«شيخ فاسق».

«اسمعي.. لستُ أبحث عن لذة عابرة فقط.. حين ينتهي هذا كله سنخرج بالكنز، ومن ثمّ سنجد طريقة لتنفصلي عنه.. سأتزوجكِ على سنّة الله ورسوله.. من حسن الحظ بعد عملية إزالة رحمكِ ما عدتِ تنجبين».

«أي كنز؟ فيمَ تفكر يا إبليس؟».

«اقنعيه أن يسجِّل شيئاً ذا قيمة من الإرث باسمكِ، وأنا سآخذ حصة الأسد.. يمكننا عندها أن نعيش بترف ونتمتع بحياتنا».

«ألا تشبع.. أنت تاجر العطور والساعات الثمينة؟».

«ليس الحال كالسابق.. من يفكِّر بالعطور الغالية والساعات السويسرية في زمن الحرب».

«وامرأتك؟».

«إن لم ترض تستطيع أن تغادر إلى جهنم».

«وأولادنا؟ ماذا سنفعل بهم».

«نمنحهم الحرية ليعيشوا مع من يشاؤون».

«الآن فقط عرفت لمن خلق الله النار».

«يا لروح المرح التي تملكين».

سمعا جلبة في الصالة.. عافته.. سارت بخطى واسعة سريعة نحو جهة الدرج.. وثب هو إلى عتمة الحمّام.

***

لمّا قام باسم ليفتح الباب، قالت عاتكة ساخرة:

«وصل كبير المفاوضين»

بقيت الوجوه واجمة، ولم يضحك إلا الشيخ رفعت.. ترامى صوت رصاصة وحيدة لم يهتم أي منهم بحقيقة؛ في أي جهة من البلدة ثارت.. دخل أبو أمجد فهبَّ بوجهه عادل صارخاً:

«سنكتشف يوماً أنها لعبتك».

ظلّ أبو أمجد واقفاً بفم مفتوح وقد غشيه الذهول.. استنكر الشيخ رفعت هذا الكلام بهمهمة مسموعة.. دعت أمينة أبا أمجد للجلوس.. جلس وأخبرهم أنه يتمنّى لو كان خارج المسألة كلها. وما يفعله هو لخاطر الحاج إبراهيم وأولاده. وتحمّل الإهانات قد يودي به، هو المصاب بالسكري وارتفاع ضغط الدم إلى الهلاك. وتحدّث عن زيادة نسبة الكولسترول في دمه، واحتمال إصابته بتصلب الشرايين.

«لستُ مخيّراً مثلما تعتقدون».

وضعت أمينة أمامه استكان شاي ينبعث منه البخار، وماعوناً طافحاً المعجّنات .. قال الشيخ رفعت:

«بارك الله فيك».

بدا عادل وكأنه سيطلق كلمات أخرى، مستفزّة، لكن نظرة من أمينة أبقته ساكتاً.. قال أبو أمجد:

«ماذا أعمل إذا كانوا يتّصلون بي. رقمي في موبايل الحاج. وربما هو من يطلب منهم ذلك».

قال الشيخ رفعت:

«أنت لم تقصِّر».

قال عادل:

«حبل الحيلة قصير».

انتصب أبو أمجد واقفاً، وقال بصوت راعش:

«إذا كان قراركم أن أنسحب فستريحونني».

التفت الشيخ رفعت إلى عادل وصاح:

«أنت تطوِّل لسانك على رجل هو في مقام والدك».

قال:

«والدي هو من أعرفه».

احمرّ وجه أبي أمجد وسار نحو الباب.. لحق به باسم وأمسكه من ذراعه، وهمس بشيء في أذنه. وسمعوه وهو يردد: «أرجوك،

أرجوك».

أرجعه إلى مقعده وطلب منه أن يشرب شايه قبل أن يبرد، غير أنه لم يقرب استكانه.. قال الشيخ رفعت:

«للكلام أصول».

«أعرف الأصول أكثر منك».

«ستفسد كل شيء».

«أنت آخر من عليه أن يتكلم عن الفساد».

«نعم، أنا من يوقّع على مقاولات وهمية مقابل عشرات الملايين في دائرة البلدية»:

«كُل خراءك».

«احترم نفسك وإلا قطعت لسانك الوسخ».

صاح عادل: «سيعرفون أخيراً من هو الوسخ».

انتتر قائماً والتقط المرمدة الزجاجية فقفز باسم واحتواه بذراعيه. صدرت صرخات نسوية، ربما من ثلاثتهن:

«يبدو أنك جننت».

ترك المرمدة تسقط على السجادة ولم تنكسر. حرّر نفسه منتفضاً من قبضة باسم واندفع ليصعد الدرج إلى غرفته. تبعته عاتكة، فاستدار

ودفعها بقوة في صدرها، فوقعت على مؤخرتها وانخرطت في بكاء حار.

قال الشيخ رفعت: «حقود».

قال باسم: «كلنا نفقد أعصابنا.. اعذروه».

كانت الساعة قد جاوزت منتصف الرابعة، وتنبهوا إلى أن الهاتف لم يرن بعد. قال أبو أمجد وفكّه يرتجف:

«فات الأوان».

غادر وهو يلملم أطراف عباءته بحنق.. بدا بمؤخرته العريضة، وجسمه يهتز إلى جانب واحد مثل وزّة كُسرت إحدى رجليها.. أسرع باسم ليودعه عند الباب.

***

«لا أحب البطاطا المسلوقة».

«الدكتورة أمينة تتحدث عن الكولسترول، وارتفاع ضغط الدم».

«كان يمكن أن تقليها أنتِ».

«أشعر بالصداع، ثم لا أريد أن أكون مع نجاة في مكان واحد».

«لِمَ؟ أهي ضرّتكِ؟».

***

غرفة أمينة باردة..

نواح الريح بين الأشجار، فيما وراء نافذتها المغطاة بستارة من قماش القطيفة الزرقاء، يزيدها برودة ووحشة.. تجلس على سريرها، في الظلام، ولا تفعل شيئاً لتتدفأ.. ليس سوى قدميها دستهما تحت اللحاف.. عقارب الساعة تمضي ببطء يثير الأعصاب.. آخر مرة تأكدت من الوقت كانت الواحدة وخمسًا وعشرين دقيقة.. كأنها تنتظر شروق الشمس لتخرج من حالة استيحاشها.. لعل الساعة الآن هي الثالثة، أو هي الرابعة.. المخدّة التي تسند ظهرها، وتفصله عن ظهر السرير الخشبي المزدوج عالية.. مخدّة الحاج إلى جانبها.. هو لم ينم في فراشه منذ أيام.. هذه هي الليلة السابعة، أو هي الثامنة. في قعدتها الجامدة تبدو كصنم يائس.. حتى العواء المخنوق لحيوان يضطهده الليل لا يجعلها تريم.. يداها في حجرها، ورقبتها مرفوعة كما لديكٍ يتهيأ للصياح.. كان عليها في ذلك النهار من صيف العام ١٩٧٢ أن ترفع رقبتها قليلاً.. وهكذا تغلق عينيها بشدة لتستشعر، كَرّة أخرى، مذاق تلك القبلة القديمة.

في نهار قائظ، تحت مروحة بمحور كروي ثقيل تدور برتابة، في غرفة الضيوف جلسا معاً.. بينهما متران من توتر ورغبة.. أمه تعد الشاي أو العصير في المطبخ.. والفاصلة الحرّة المتاحة، أربع دقائق، ثلاث دقائق، أو أقل..

يقترب منها، تختلج عضلة في رقبتها، وثانية على طرف فمها.. تحدس أن حدثاً كونياً على وشك الوقوع.. ينحني عليها.. عضلة ثالثة، أو أكثر، مع شبكة أعصاب، تنتفض في مكان ما من جسمها.. بالأحرى في أعماق جسمها.. ترفع رقبتها فيدير رأسه مواجهاً وجهها الآخذ بالتورّد، فيما صدره يدفع صدرها فيلتصق ظهرها بظهر الأريكة.. ترى أن عليها إغماض عينيها.. تغمض عينيها.. يلتقم شفتيها مثل قضمة من فاكهة بين شفتيه.. النشوة التي تغمرها بفعل المصمصة تمنعها من أن تفتح عينيها.. تفكر بأمه التي ربما ستدخل في أية لحظة، غير أنها لا تبالي كثيراً.. وصدرها ينضغط تحت اندفاعة صدره، وهو يحيط رأسها بذراعه.. لسانه الآن يبحث، في عمق فمها الذي تعسّل، عن لسانها.. هي لا تعرف ماذا عليها أن تفعل.

عافها وانسحب ليجلس على مقعده إزاءهـا.. بدت وكأنها استيقظت لتوِّها من حلم غريب.. عضَّضت شفتيها، كما لو أنها تريد التأكد مما حصل.. وجهها أشد احمراراً، الآن، وحبّات العرق تلمع على جبينها.. أمالت رأسها، وأزاحت خصلة نافرة من شعرها الأسود الطويل، وقالت:

«لماذا فعلت هذا؟».

«كي يعلق هذا النهار بذاكرتكِ، وإلى الأبد».

«مع كم واحدة...».

«لابد من أن تكون هناك مرّة أولى».

«تهرب من السؤال».

«لست دون جوان».

تضع الأم صينية فيها كأسا عصير زبيب على طاولة مضلّعة أمامها، تأخذ كأساً تقدِّمها للشاب الذي يضع ساقاً على ساق ويبتسم، وتقول للشابة: «اشربي عصيركِ حبيبتي». وتسأل:

«من هو دون جوان».

«أمير فرنسي، أو هو إسباني من القرون الوسطى».

«ماذا كان عمله؟».

«أمير يا أمي.. قلت لك إنه كان أميراً».

تضحك الشابة وهي تمسك كأسها، فيما تجلس على الأريكة ذاتها، بالقرب منها المرأة التي تخطّت أواسط عمرها، وتقول:

«من يدري؟. تحب حكي الألغاز «.

من بعيد وقد خفت نواح الريح يصلها صوت أذان الفجر.

اليوم السابع

تدفع الباب.. تخطو في الرواق الفاصل بين المنزل والحديقة.. تباغتها قشعريرة تستلذ بها للحظات.. تقف.. تلمُّ طرفي سترتها القطنية حول صدرها.. ترفع رأسها.. هناك، في السماء الرحيبة، تتداعى الغيوم كأنها جبال ثلج أسمر. تنهار ببطء، لكن بتصميم لا يُرد، تاركة تشققات تنفذ من بينها أشعة الشمس حادةً، سخية.. أوراق الأشجار نظيفة، تلمع، يلاعبها هواء صافٍ بارد، وضوء وفير.. تغمض عينيها، تتنشق رائحة النباتات غبّ المطر؛ الرائحة القديمة عينها التي طالما غمرتها بالغبطة والثمل.

في هذه الفجوة الفارقة من الزمن يعود إليها معفّراً بغبار غيابه الطويل.. إذذاك، مثلما في مرّات لا تُعد، تضحى صورته التي تستحوذ على ذهنها الآن الخريطة السرّية لروحها، فيخالجها شعورٌ زاهٍ بالنشوة والارتواء.

هي مع أمه.. هو على دراجته الحمراء في الباحة الواسعة التي تتوسطها شجرتا سدر وتين.. تترك الأم في غرفتها وتخرج .. تراه يدور حول الشجرتين مبللاً ضاحكاً، والرذاذ يتساقط على رسله.. يناديها:

«تعالي، اصعدي».. تقول له: «عيب، ماذا ستقول عنّي أمك؟»..
«لن تقول شيئاً، تعالي، لا تخافي».. تجيء.. يُجلسها على الانبوب المعدني بينه وبين المقود.. تحس بدفء أنفاسه على رقبتها فتجرف صدرها رعشة منعشة، وتشرع الدراجة بالدوران حول الشجرتين العجوزين، والضحك يستغرقهما.. تصيح: «انزلني» يصيح: «لا».. يستمران هائمين في دائرة جذلهما، والمطر يهمي.. البلل ينفذ إلى جسمها، لكن حرارته يصلها حتى قرارتها.. تعيد القول: «توقّف، انزلني». ولا تحسم في سرِّها إن كانت تريد أن تنزل أو هي لا تريد. ولكن بعضًا من خجل يدهمها، فلربما تتابعهما أمه بنظرات متواطئة عبر نافذة غرفتها.

تفتح عينيها.. تستدير.. تجتاز الرواق عائدة إلى مطبخها.. تُفاجأ بباسم جالساً على أحد كراسي طقم مائدة الطعام، أمام النافذة.. تقول:

«كنت تراقبني».

يقول:

«كنت أعاين ما يدور في رأسك».

يضحكان..

***

«في يوم من أواسط الخريف.. أظن كنا نقترب من تشرين الثاني..

يوم خميس تحديداً، لأنّنا كنّا في المقبرة.. أنا وأمي وأخي، وهو وأمه.. تعوّدنا زيارة موتانا في مثل هذا الوقت؛ ساعة ما قبل الغروب من كل خميس.. النساء في العادة. لكنه هو وأخي اصطحبانا بإلحاح من أمِّه.. قلت له، والآخرون على مبعدة: هذه أول نسمة عذبة منذ أشهر.. قال: العذوبة هي أنتِ.. أول عبارة غزل أتلقاها في حياتي.. تضرّج وجهي بحمرة، لا شكّ، إذ أحسستْ بسخونة وجنتيَّ.. تركته بخطوات متعثرة إلى حيث تقف أمي وأمه، والخجل يربك ابتسامتي.. كان من النوع الذي يكتم عواطفه، لذا لم يُسمعني عبارات مثلها إلا في النادر.. لا أذكر أنه قال لي يوماً حبيبتي.. لم أسمع هذه العبارة من أي رجل، أتصدق؟. أبوك لا يعرف هذه الكلمة ولا ما يشبهها.. يعرف كيف يشتم.. قالت أمي: ما لكِ، وجهك كالشوندر.. قلت: حارّة شوية.. نظرتُ ناحيته فابتسم لي.. بدا في ابتسامته سحرٌ غير معقول.. تمنيت أن أقول له: العذوبة هو أنت والله، لا أنا.. بدا وسيماً، أشدّ وسامةً من عمر الشريف ورشدي أباظة اللذين كانا مع غيرهما من ممثلي مصر فرسان أحلام الفتيات في ذلك الوقت.. يرتدي قميصاً أبيض بكم قصير، وشعره المزيّت الممشط بعناية إلى الجانب يلمع مع آخر شمس النهار.. مرّة قال لي: تشبهين أنغريد بيرغمان، لولا أنكِ أكثر اسمراراً منها، أقصد أجمل.. والآن، كلما أتذكّر هذه العبارة تدمع عيناي.. نعم، آسفة، مثلما قلت لك، لا أستطيع منعها، آسفة.. لم أكن قد سمعت بأنغريد بيرغمان.. كان هو يشاهد أفلامها بسينمات بغداد..

فيما بعد حين رأيت صورتها فوجئت.. لست أشبهها إلا قليلاً.. ربما الخدود والفم.. لا أدري، ربما الحنك.. لا تضحك.. كنت جميلة، لكن الزمن أغبر.. لا تضحك يا مكروه.. لن أحكي لك أبداً عن أي شيء آخر.. جوعان؟ الأكل جاهز.. رز وبامياء يابسة.. لحم خروف هرفي.. سيجارة أخرى؟ لا، أرجوك.. أنت تعذِّب نفسك وتقتلها.. كفاية.. كم سيجارة منذ الصباح.. أقسم أنك دخّنتَ علبة كاملة.. ماذا في هذا الدخان الخانق الكريه.. لا تقل لي؛ يهدئ أعصابي.. لا أدري.. كان يدخن هو أيضاً.. ربما خمس أو ست سجائر في اليوم.. أذكر علبة الكريڤن الحمراء وقدّاحته المعدنية.. كان يشرب البيرة أحياناً في نادي الموظفين.. ماذا؟ يا لك من وقح؟ لا أعرف.. واللهِ لا أعرف.. ألهُ تجارب من هذا القبيل مع نساء ليل.. قطعاً ليس هنا.. ربما في بغداد.. لا أعرف.. يا مكروه.. أهو سؤال يُوجّه لامرأة.. هههههههههه.. أمزح معك.. والله لا أدري.. لم يخطر ببالي هذا السؤال.. من يدري.. أسامحه إن فعل.. ماذا؟ لا أقول حين أذكره؛ الله يرحمه.. نعم، لا أقولها أبداً.. بهذا أبعد فكرة موته عن ذهني.. هو عائش، ما يزال في ضميري.. هو بقية وهمي القديم.. إلى أين أوصلتني في الحديث؟. سأحضر لك طعام الغداء.. وهم، لا أدري ماذا يفعلون ولأي شيء يخطِّطون في غرفهم؟.. دعهم.. لنتغدَّ».

***

«هذا الحقير لا يستأهل حتى أن يلمسكِ».

«ستتسبّب بمشكلة كبيرة».

«عطر جسمكِ وحده يساوي رأسه وأكثر».

«أرجوك رفعت.. دعني وشأني.. ولنر إلى أين سينتهي هذا كله».

«لن ينتهي إلى خير طالما تنامين في سريره».

«أجننت؟ هو زوجي، عندي منه ثلاثة أبناء».

«هه. أتظنين أن هذا هو لبّ مأساتكِ؟».

«ماذا تريد لخاطر الله؟ تحوم حولي مثل ضبع جائع».

«أريدكِ.. باختصار شديد؛ أريدكِ أنتِ.. أريد هذا الجسد.. أريد هذه النعمة الإلهية التي هي في المكان الخطأ.. سأنتظرك مع أذان الفجر في الحمّام».

«مستحيل».

«حُسنكِ هو المستحيل».

علّقت عينيها بعينيه.. قالت بتهكم:

«أرى جهنم».

قال باسماً:

«ترين جهنم الرغبة».

***

«لستُ مرتاحة لعاتكة هذه».

«ما لنا ولها؟».

«هكذا؟».

«ماذا؟».

«أشم رائحة عفونة. وأقسم أنك تفهم قصدي».

«ما هذه الألغاز؟».

«ألغاز؟ نعم، هناك لغز.. لغز بدأت أتعرّف عليه».

«كوني واضحة».

«أنا واضحة بما يكفي ليدرك ثعلب مثلك ما أعني»

«مجنونة.. أنتِ مجنونة والله.. إن كنت تتخيلين..».

«أتخيّل.. لا يا حبيبي، أنا لا أتخيّل.. أنا أقرأ الإشارات».

«إشارات؟. أعلميني عن إشارة واحدة».

«كان وجهاكما مخطوفين حين دخلتُ عليكما الصالة.. كنتما تتحدّثان في أمر، وفجأة سكتّما.. وأمس كنت أراك تنظر إليها، وفي مرّة خزرَتكَ لتكفَّ، كأنها تقول لك لا تفضحنا يا مراهق».

«تصلحين مخبرة سرّية، أو محقِّقة مثل السيد كونان».

«اسمع، والله العظيم، لو تأكدت، لجعلتكما تندمان لأنكما ولدتما.. سأقتلكما ببشاعة.. والله يا... يا شيخ الإسلام».

«يا ستّار يا حافظ.. يبدو أن العنف معدٍ.. الميل للقتل ينتشر هذه الأيام، ويصيب النساء أيضاً».

«تسخر.. أنت تسخر كي تخفي ورطتك القبيحة.. أنا تلك أعرفها، وأنت أعرفك.. أخي غبي.. هي عاهرة.. وأنت؟. تعرف ما أنت.. تعرف».

«تتجاوزين حدودكِ.. عيب.. الإسلام قال بأربعة شهود قبل قذف المحصنات».

«هه.. ههه.. أربعة شهود والميل في المكحلة.. لا أحد عجنك وخبزك أكثر مني يا زوجي العزيز».

«لا تبكي.. تعالي».

«ابتعد عني.. لا تلمسني».

«أرجوكِ.. أنتِ تفضحيننا».

«واللهِ سأشهِّر بكما.. سأهدُّ البيت كله على رأسيكما».

«اهدئي.. اهدئي.. لخاطر الله اهدئي».

***

«وحدنا على المائدة».

«انضمّت نجاة إلى المتمردين، وتبعها زوجها».

يضحك باسم ويلتقم شريحة من صدر الدجاج المشوي.. يقول:

«ألا تساعدكِ المرأتان في المطبخ؟».

«لست بحاجة إليهما.. تتناقران أكثر مما تشتغلان».

«لو تطفئين المدفأة.. بدأت أعرق».

***

يلمِّع بندقية الصيد.. يمسح بقطعة مزيّتة من قماش قطيفة كل ثنيّة فيها.. يثبِّت إطلاقتين في حجرتيها، ويمسِّد على ماسورتها براحة يده كما لو على ظهر قطّة أليفة. يرمق زوجه الجالسة على كرسي خشبيٍّ ذي مسند.. هي تراقبه مذ انتزع البندقية من مكانها على جدار الصالة وأحضرها إلى غرفته قبل ساعة.. يقول:

«إنها جاهزة الآن للاستخدام، يمكنها أن تقتل خنزيرين».

«أتنوي حقاً إطلاق النار منها».

«لكل حادث حديث».

«حين تكون هناك بندقية تحضر الشياطين».

«ليست البندقية وحدها.... بعض السحرة يستدعون الشياطين..

بعض النساء أيضاً.. بعض أصحاب اللحى.. للشياطين أصدقاء كثر».

ترتعش يدها. وكذلك عصبٌ تحت جفن عينها اليسرى، ويتنمّل جلد وجهها.

يلحظ انسحاب الدم من خدّيها المورِّدين ويبتسم.. يحدس أنها تسأل نفسها في هذه اللحظة؛ «ترى ما الذي يدور في رأسه؟».. يقول:

«هذه البندقية لم يشترِها أبي ليصيد بها الطيور.. اشتراها لأن هناك دوماً خنازير تتلف مزرعةَ الفستق.. لا أظنك تعرفين أن الخنازير تحب أكل الفستق.. لستِ وحدكِ من يحب الفستق».

«مذ عثرت على تلك الإطلاقات اللعينة تبدو كمن أصابه مس».

«لا، لا، لا.. ليس منذ ذلك الوقت.. أنتِ لا تعرفين شيئاً».

ردّت بسخرية:

«لا تقل لي أنك تفكِّر بمواجهة المسلّحين بمدفعك الرشاش هذا إن هاجمونا».

«لستُ شجاعاً إلى هذا الحد كما تعرفين».

يضحك.. ضحكته عصبية جافة.. يحضن البندقية، يشدّها إلى صدره ويستمر بضحكٍ صاخب يثير أعصابها:

«لم تعد تنام جيداً.. منذ دخلت مع ذلك اللعين أبي أمجد في

مشادّة، لم تقربني حتى.. تنفر منّي وكأني نفاية.. حلمي أن نعود إلى ما كنّا عليه قبل سنتين.. ألا تذكر؛ لم تكن تفوِّت أية فرصة.. هذه البندقية..»

«ليست البندقية.. لا.. أنتِ ساذجة.. ولكن البندقية إن شوهدت في فصل المسرحية الأول فلابد من أن تثور إطلاقة في الفصل الأخير.. هذا ما قاله باسم يوماً.. هو قال إن أحدهم قال..».

«يا ساتر.. سأخبر أمينة لتعيد البندقية إلى مكانها، أو تخبئها».

«وما شأنها هي؟. إنها بندقية أبي.. لن يأخذها منّي إلّا أبي».

«تتصرف كطفل.. اسمع حبيبي.. الدنيا باردة.. دع البندقية وتعالَ لأحضنك في الفراش.. لأدفئك».

«تحضنيني؟. لِمَ؟. لتدفِّئيني؟».

«تعرف جيّداً أني أحبك».

«لا أحد يحبُّ أحداً.. كلٌ يحب نفسه».

«لا تظلمني».

فرقعة ضحكته تستفزها.. تقوم وبدنها يرتجف:

«أنت مجنون.. إن لم تترك هذه البندقية، أقسم أنني سأعود إلى بعقوبة».

«لن تعودي إلى أي مكان.. لم تنتهِ المسرحية بعد.. اسألي باسمًا».

وانفجر مرة أخرى بضحكته العصبية، الجافة.

***

«كانت لينا تختزل العالم بحركتها على خشبة المسرح.. كان يكفي حين تتراقص أقدامها وتخفق ذراعاها كجناحي بجعة كي ترى البحيرة الخفيّة في الغابة، وتسمعي شدو الشحارير، وتحسّي بنشوة الأشجار مع أنفاس السَحَر..

ماذا؟. لا يا أمينة، ليس محض خيال. فقد لقيت بصحبة لينا فرح الوجود، ووقعت على السرّ الذي يحرِّضنا على التحدّي والاستمرار، لا قول الشعر فحسب. وقبل أن أكتشف، لاحقاً، مع شديد الأسف، أنني لست مؤهلاً للمضي بالتجربة إلى حدِّها القصي. ويبدو أن حدسها خانها، لمرّة واحدة في الأقل، ساعة توهّمت أنها بتعرّفها عليّ دنت من حلمها، من برّ السلام والسعادة. حتى بتُّ أنا، في النهاية، علامة خذلانها الكبير.

لست أجلد ذاتي يا أمينة.. صدّقيني، أخبرك بما أشعر به في العمق.. تقولين إن الأوان لم يفت، ودائماً ثمة فرصة ثانية.. من يدري.. لست أدري إن كانت ما تزال في بيروت، حتى هذه اللحظة، أو وجدت ضالتها في مدينة تغمرها الثلوج، في هذا الوقت من السنة، شمال أوروبا.. أو ربما تزوجت، وهي الآن تنعم بدفء رجل يقدِّرها

أكثر مني..

لا، لا، لا.. ما هذا السؤال؟ بل بالعكس، أتمنّى حقاً أن يكون الأمر كذلك.. أن تكون قد حازت على ما يجعلها تنساني وإلى الأبد.

دعيني أحكِ لكِ.. لينا لم تكن ممثلة محترفة، لكنها امتلكت الموهبة والإرادة والذكاء.. كانت معلِّمة في روضة أطفال، أعنّاها على نقل خدماتها إلى دائرة السينما والمسرح.. قدمت، مثل معظم العراقيين، من أرض الشقاء؛ أخ انتحر وهو في ريعان الشباب لسبب لم تعلمني به، وأب مات كمداً عليه، وأم تثقل بدنها ثلاثة أو أربعة من أمراض العصر، وأخت تكبرها بسنة، معاقة منذ ولادتها.. كانت بغداد، كما تعرفين، وبالرغم منها، تمشي في درب الآلام.. قتل وتهجير وخطف ومفخخات وخوف يومي.. ألحت أمها على الهجرة، هي رفضت.. وحين لم أعنها أنا في خيارها، قرّرت شيئاً آخر.. قدّمت استقالتها من وظيفتها، من ثمّ باعوا بيت العائلة بثمن أقل من قيمته، وطاروا إلى تركيا.. في أستانبول بقوا ينتظرون موافقات اللجوء بالطرق الشرعية.. قالت إنها لو كانت وحدها لركبت واحدة من تلك السفن المكتظّة بالبشر اليائسين وعبرت الأبيض المتوسط حتى مع احتمال غرق السفينة بنسبة ثمانين بالمائة. إلا أن وجود كائنين شبه عاجزين معها كان يشلّها. ثم أغروهم بالذهاب إلى بيروت، لأن فيها فرصاً للهجرة أفضل.. في بيروت كبرت خيبة الأمل.. فراحت تبحث عن عمل بعدما أوشك ما معهم من نقود على النفاد.. اشتغلت عاملة،

ولعلها ما تزال، في معمل صغير للخياطة، بنصف دوام وربع أجر.. اقترحتُ عليها أن تجرِّب حظها في المسرح هناك. قالت لي وكانت تسخر؛ عن أي مسرح تتحدث يا رجل. كأنك لست تعيش هذا الزمان.

أجل يا أمينة.. أفهم والله.. أما هي فأخبرتني أنها كانت بحاجة إلى من تفضفض له، ولم يمرَّ بخاطرها سواي.. قلت لها شكرا لأنكِ تتذكرين. ماذا لو أدبِّر مبلغاً وأرسله إليكِ.. أغاظتها كلماتي المثبطة والغبية هذه.. يوقعنا تحذلقنا، نحن الذين ندّعي أننا مثقفون، في الفخ، أحياناً، فتفلت منّا من غير أن ندرك عبارات تهدِّم من حيث نظن أننا نبني.. اعتذرت منها.. ولكن ألم يكن من اللائق أن أتصل بها ثانية وأكرِّر اعتذاري.. لم أفعل يا أمينة، لم أفعل.. لا بسبب الكبرياء، وإنما لا أدري.. من يدري.. ربما خوفاً من استئناف العلاقة.. ربما.. لا، ما هذا الذي تقولين؟. لا، لستُ أبكي»

***

تقرِّب أمينة المدفأة من موضع جلوسه.. وهو يشرب الشاي يسهب بالشرح عن عظامه التي ما عادت تتحمّل مثل هذا البرد.. تقول له إن الشيخ رفعت مع نجاة ذهبا في زيارة لعائلة من الأقرباء، فيما رفض عادل النزول من غرفته، وطاوعته عاتكة على مضض.

باسم وحده يجلس باسترخاء صامت، إلى جانبه، ولكن على مبعدة كرسيين، ويدخِّن.. يقول أبو أمجد إن القصة باتت متعِبة

للأعصاب ومملّة، فيوافقانه.. باسم بهزة رأس، وأمينة بتمتمة خافتة: «صحيح».

بعد وجبة الشاي والكعك، تقول أمينة إنها بمناسبة الهدوء، اليوم، ولكي تكسر الرتابة ستعدّ لهم القهوة.

مع غياب أمينة في مطبخها يقول أبو أمجد:

«كل شيء تغيّر منذ الاحتلال».

يقول باسم: «وقبل الاحتلال بزمن طويل».

لنكهة القهوة تنشرح أسارير أبي أمجد فيدغدغ بذاكرته جلد السنين الخوالي.. يحكي عن حيرة أبيه الفلاح في الخلاف على ملكية ساقية بين بستاني الحاج إبراهيم والشيخ عبد المهيمن، رحمة الله عليه، والد الشيخ رفعت.

«خلاف لم ينهه إلا زواج رفعت من نجاة.. ذلك كان صلح محبة وخير».

تقول أمينة وكأنها تخاطب باسمًا وحده:

«يوم العرس كانت أمك مريضة جداً.. لم يحضر أي من أخوتها، غير أن الأقرباء والجيران كانوا هنا.. لم تكن هناك حفلة بالمعنى الذي يخطر لكم.. دقوا الدفوف ورددوا: لا إله إلا الله. فقط؛ لا إله إلا الله. وأخذها رفعت بسيارته المزوّقة بالأشرطة الملوّنة والزهور

الاصطناعية إلى بغداد.. قبل أن تستقل السيارة زغردتُ.. أنا سيئة في مثل هذه الأشياء.. أنجدتني جارة لنا بزغاريد كطلقات الرصاص جعلتنا نضحك، غير أن نجاة كانت تبكي أمها الراقدة على فراش الموت».

يسأل باسم:

«أكان زواجهما صفقة؟».

ترد أمينة:

«نعم، لكن كلاهما رحّب بها.. نجاة جميلة وابنة عائلة محترمة، ورفعت ما كان ليجد أحسن منها»

تقلب فنجان قهوتها، بعد أن لم يبق فيه إلا الثفل، على الماعون المزهر الصغير وتستدرك ضاحكةً:

«وكنت أنا من استشارته نجاة حول هذا الأمر.. قلت لها؛ وأنتِ ما رأيكِ. قالت؛ بصراحة هو وسيم ومتعلم، لكنه كما أخبروني فاسد قليلاً وعينه مالحة.. قلت؛ أنتِ حلوة إلى الحد الذي سيكتفي بكِ.. لا عليكِ بمواسم مراهقته وطيش شبابه».

يقول أبو أمجد: «كلنا سلكنا دروباً، أقصد نحن الرجال، نخجل منها اليوم».

يسأله باسم:

«وأبي.. أكان يصطحبكَ معه بمغامراته في بلاد العجائب؟».

تضحك أمينة، ويضحك أبو أمجد وقد نفر الدم إلى وجهه فأمسى أحمر قانياً.. يقول:

«أحياناً»

تنتشله أمينة من لحظته الحرجة مشيرة إلى ساعة معصمها التي تخطّت عقاربها الخامسة بدقيقة، ولم يتّصلوا، فيما هم؛ أبو أمجد وباسم وأمينة، في خضمِّ الدردشة، ودورات احتساء الشاي والقهوة نسوا القضية التي من أجلها يجتمعون ها هنا، عصر كل يوم.

يقوم أبو أمجد قائلاً إن عليه أن يسرع ليصلي المغرب جماعةً في المسجد.. يوصلانه إلى الباب.

***

«صفير الريح.. أتسمع؟».

«تلك الريح القديمة».

«الوحشة والأشباح».

«كان ذلك بعد يومين من رحيله».

«أذكر ذلك اليوم، تصوّري.. أذكره جيداً».

«كأن الطبيعة كانت تحتجُّ».

«سألتِ عن الطيور، عن مصائر أعشاشها».

«ربما أنتَ الذي سألت»

«أنا قلت إن النهار أصفر».

«أوراق التين كانت يابسة.. تساقطت كلها.. أوراق تخشخش وتتكسر على بلاط الحوش».

«قلتِ لا جدوى من كنسها الآن».

«كلّما صفرت الريح عاد ذلك النهار.. لعنة مكررة».

«القطة اختبأت في موقد الحمّام».

«مع ابنتها.. لم تكن قد بقيت من القطط السبع التي أنجبتها سوى تلك.. لم أخبركَ إن قططاً أخرى أكلت الست الصغيرات اللواتي اختفين».

«أية قسوة في أن تتذكّري كل شيء؟».

يرشف من كأس الويسكي.. يقضم شريحة تفاح أحمر.

«كما لو أن ذلك النهار لم يغرب بعد.. جمد منذ ذلك الوقت».

«وشمٌ أبدي على جلد الزمان».

«مذذاك أمطار كثيرة سقطت، ونهارات مشمسة لا تحصى مرّت، وليالٍ، وأصياف، وشتاءات، وثلاثون ربيعاً وخريفاً.. لكن تلك

الساعة..».

«لم نغادرها بعد».

«أتظنين أننا سنغادرها يوماً.. هل سيخمد ذلك الصفير؟».

«لا، كأن الزمان ينوح.. القصة التي لا تنتهي».

«كم هي دقيقة وواضحة عبارتكِ؛ القصة التي لا تنتهي.. كأننا عالقون فيها».

«كلٌّ منّا يعلق في قصة ما.. قصة لا تنتهي.. تراجيكوميديا».

«رغبات محطّمة، لا رغبة لأي أحد حتى بالهرب، حتى بالبكاء».

« هذه سيجارتكِ الثالثة منذ عشر دقائق».

«وماذا يعني هذا، ما الضرر ما دمنا عالقين؟».

«والأشباح تنوس من حولنا، وأرواحنا مستوحشة، والريح لا تكف».

«رغبتي الوحيدة أن أدخِّن».

«لا، في هذه الحالة ليست رغبة.. بل تعبير عن انعدام الرغبة بأيِّ شيء.. ندخِّن بعدما اضمحلت الرغبات، مثل المحكوم بالإعدام الذي يدخِّن سيجارته الأخيرة.. السؤال الذي يوجّه أولئك المحكومين عن رغباتهم الأخيرة خاطئة، حمقاء واستفزازية.. لا رغبة في تلك

اللحظة.. أبداً لا رغبة».

«أنت تتمادى في التجريح.. تنزف وتجعلني أنزف».

«سأخرج.. آهٍ لو أخرج إلى ظلِّ التاريخ لأجدني».

«أواثق بأنك ستجدها».

«لن أجدها.. يتهيأ لي أنها أكذوبة.. لن ألقى في النهاية سوى الريح التي تصفر».

يأتي على ثمالة كأسه. ويعود ليملأها ثانية بآخر ما تبقى في زجاجته.. تتمنى له أمينة نوماً هانئاً وتخرج.

***

تسحب الستارة.. تفتح النافذة.. تجلس على كرسيِّها الخشبيِّ لتحدِّقَ في ليل الأشجار.. ينبعث هسيسٌ غامض من مكان ما، يكسر تكتكة ساعة الجدار، وإذذاك تتسلّل البرودة إلى غرفتها؛ شيء من الهواء الخفيف الذي يلاعب أعالي الأغصان، وكثيرٌ من الظلمة الجرداء.. الظلمة وقد أطلقت سراح بضعة نجوم تدرجُ في الأفق المشرع فوق العالم.. العالم وقد بات ينتهكه في روحها مشهدٌ صيفيٌّ مضيء.. هي وحدها، في الباحة الواسعة، المغمورة بشمس حزيران، قريباً من شجرة السرو العتيقة.. تراقب عصفورين عاشقين، يعبثان مراراً، بلا حياء، في الفيء الكثيف للأوراق.. تبتسم، تكركر..

تكركر.. ثمّ تباغت به وراءها.. تستشعر خطواته قبل أن تبصر ظله.. لم يبن عليه أنه لحظ أمراً. أم تراه حاول تمويهها، كي لا تتضرج وجنتاها بدم الخجل، لكنها كانت خجلى، حداً شارفت معه أن تفقد وعيها فهربت تتعثر، ولم يهرب العصفوران من خلوتهما اللذيذة. فيما لم يفه بكلمة وهو يرنو إليها تخرجُ، وتكاد تقع، على الأرضية الحجرية للباحة.

تعرقُ في البرد والظلمة، تبتسم والخجل القديم يدهمها، ولا تكركر.. غير أن باسمًا الصغير، في صباح آخر، سيسألها عن سرِّ العصافير التي تعاود القفز مراراً، بعضها فوق بعض. ستقول له؛ لا أعرف، لا تسأل مثل هذه الأسئلة.. وسيسأل؛ لم عليه ألا يسأل مثل هذه الأسئلة؟.. فتجيب: «عيب».. «وليش عيب؟». وتفكّر إن كان باسم ما يزال يتذكّر مشهد العصفورين ذاك، على سياج السطح في ذلك الصباح من صيفِ المسرّات.

اليوم الثامن

في حركة ارتدادية سريعة، مع الوقع الواهن لأذان الفجر؛ تنفتح جفونها. تجلس بظهر مستقيم. تدعك عينيها. يأنس نظرها لشبه العتمة.. تتنصت لشخيره المنتظم، فتتأكد، من أنه تحدّر إلى القاع من بئر النوم. تنزل على مهل من فراشها، تمشي على رؤوس أصابع قدميها الصغيرتين مثل قطة تهم بسرقة قطعة لحم من مطبخ ربة منزل بخيلة. تسحب الباب الذي أبقته الليلة غير مقفل. تخرج إلى المجاز. تطمئن طالما ما يزال يشخر. تأخذ نفساً عميقاً. تسحب باب الغرفة ولا تقفله كذلك كي لا يتنبه ويستيقظ.. يقشعِّر جسمها الذي لا يستره سوى رداء نوم شفاف. تمسك الدرابزين. تحسُّ بالملمس البارد لمعدنه في باطنّ كفّها. تنزل الدرج بخفّة. تستدير نحو ممر الحمّام. تدلف إلى الحمّام المعتم. ينغلق الباب وتجد نفسها بين ذراعين قويّتين في الظلام.. تهمس لاهثة:

«إنك عارٍ تماماً يا شيخ السوء».

يهمس وأنفاسه الحارّة تلفح صفحة وجهها:

«لا وقت لدينا حبيبتي».

يسقط عنها رداءها.. يسحبها إليه، يحتويها:

«ولا خيار إلا أن نفعلها واقفين».

يرفع ساقها اليسرى.. يثبّت الفخذ الطري الملفوف بساعده العضل عند خاصرته.. يشدّ جذعها إليه بساعده الآخر الملتف حول ظهرها.. بالانسحاق الفاحش لنهديها المصقولين على صدره يشتعل شبقاً، فيروح يلثم وجهها، شفتيها، رقبتها.. يتأكد من أنها تلتصق به بشغفٍ ضارٍ وحار.. تهبط يده المنشبكة حولها إلى ما تحت بطنه لتبدأ بترتيبٍ وضع جسده مع جسدها قبل أن يروح ويحيط براحة يده وأصابعه ردفيها، ويعجنهما.

«لا تترك أثراً على جسمي».

يحرِّك وسطه، وبسلاسة ينزلق فيها عميقاً.

«آآآخ.. على كيفك.. يخرب بيت أهلك».

«أششششششش».

«ثور حقيقي».

«وما الذي يُسكت دودتكِ غير ثور حقيقي؟».

ولدقائق تدوِّم في حندس الحمّام العالي التأين سحائب من اللهاث والغطيط المتناغم والبقبقة والهسهسة والهشهشة والوشوشة والسباب البذيء المهموس. حتى إذا بلغا لحظة الرعشة الفذّة، حيث يُنسى العالم، ويتركز الوجود جمرةً تشعُّ باللذائذ في قرارتيهما

السحيقتين، يندفع الباب، ومعه ما يكفي من ضوء الممر، ليكشفهما في مشهد الذوبان، وهما في أقصى حالات النشوة والعجز.

هو، في جزء مرعب من الثانية، يرى سبطانة البندقية مصوبةً نحو ظهرها، ولا يرى الفتحتين المعتمتين. ولن يفعل أيّ شيء.. هي لا ترى ولا تشعر، ولن تعرف ما الذي سيحصل في التوّ.

إطلاقة واحدة مهولة، لا فاصلة تذكر بينها وبين صداها الذي سيستمر يطن في أذنيه هو، فيما جسمه يتخدر والدم يبلله ولن يعرف فيما إذا كان ذلك دمه أو دمها.. ستوقظ تلك الإطلاقة اليتيمة من في المنزل، وسيسمعها شرطة الدورية في الجوار. ومن المحتمل، أيضاً، أنها استفزّت تلك الأشباح التي تنوس خلف الدار، بين أشجار النخيل والبرتقال واستنفرتها.

***

أول نور الصبح، والباب يُقرع بقوّة وعناد.. يتواصل رنين الجرس.. تجري أمينة حائرة هنا وهناك، ولا تعرف إلى أين تتّجه.. حلقها جاف والخوف يكاد يحبس أنفاسها.. تسأل: «من الطارق؟».. تفتح الباب.. يثبُ أربعة من رجال الشرطة صارخين، شاهرين بنادق الكلاشينكوف، وبإشارةٍ من أمينة يعبرون من الكليدور إلى الصالة، إلى ممر الحمّام. عادل جالس على الأرض، رأسه بين ذراعيه، وعلى مقربة منه بندقية الصيد.. نجاة تعيط، وتخرمش خدّيها.. باسم واقف بفكٍ متهدِّل وعينين مغلقتين، وظهره مسندٌ إلى الجدار، أمام باب

الحمّام المفتوح.. يأخذ أحد رجال الشرطة البندقية، ويشاهد إثنان آخران منظر كائنين عاريين مضرّجين بالدم على أرضية الحمّام.. يجسُّ أحدهما نبض عاتكة فيتيقن من وفاتها.. يقول للمفوض الذي هو الأعلى رتبة بينهم بعدما يفحص الشيخ رفعت: «إنه يتنفس، يجب الإسراع به إلى المستشفى». ويقوم بالتقاط صور عديدة، ومن زوايا مختلفة لهما، بكاميرا هاتفه الخلوي.

يتصل المفوّض بوساطة جهاز لاسلكي بالمركز موجزاً الوضع، وطالباً دعماً عاجلاً.. من ثم يمسك بذراع باسم ويقول:

«أعتقد القضيّة واضحة.. أنت من قتلهما، أليس كذلك؟».

ينهض عادل ويقول بنبرة جافة مقهورة:

«بل أنا من أطلق النار عليهما. هذه العاهرة زوجتي».

ويتفاجأ باثنين من رجال الشرطة يحملان الشيخ الذي ما يزال يتنفس والدماء تغطي صدره العاري.. يقفز ويضغط بأصابعه على رقبة الشيخ.. يضربه الشرطي الحامل لبندقية الصيد بأخمصها على رأسه فيترنح ويسقط على أرض الممر والدماء تسيل من صدغه.. ينهضونه ويقيّدون معصميه وراء ظهره بجامعة، ويقتادونه إلى الصالة..

تصل سيارة أخرى للشرطة، وفيها ضابط برتبة نقيب.. يطلبون شرشفين من أمينة؛ واحد لتغطية جثة القتيلة، والثاني لستر عورة الشيخ رفعت. فتأتيهم بهما. وبقطعة شاش لوضعه على الجرح

النازف لعادل.

يسأل الضابط:

«ما الذي حصل؟».

«كما ترى.. أظنك فهمت كل شيء».

«اشرح لي».

«كنت نائماً، غرفتي في الطابق الأعلى.. سمعت صوت إطلاقة.. نزلت.. وكان هذا المنظر». قال باسم

«أنتم أيضاً تعالوا معنا، سندوِّن أقوالكم.. المرأتان سأستجوبهما أولاً وبسرعة، لتعودا إلى المنزل.. أعذرنا هذه إجراءات روتينية».

يكاد الشارع يخلو من المارّة والسيارات في هذه الساعة المبكِّرة من النهار.. وهذا من حسن الحظ كما يفكر باسم.. بعد مغادرة سيارة الإسعاف التي أقلّت المصابين، بقيت سيارتا الشرطة، ووراءهما وقفت أربع عجلات أميركية من نوع همفي.. بعض جنودها الذين ترجّلوا يتبادلون كلاماً لا يسمعه باسم، في ما بينهم، ويضحكون.. يرجِّح باسم، وهو يصعد إحدى سيارتي الشرطة إلى جانب نجاة وأمينة اللتين تدثرتا بعباءتيهما، أن الأمريكان لا شك، عرفوا الحكاية، وها هم يغتابون عائلته، ويضحكون بخبث.

***

«إنهما زوج أختك وزوجة أخيك».

«نعم».

«أكانت لديكم أية شكوك بخصوص هذه العلاقة؟».

«أبداً».

«أنتم هنا جميعاً لأن والدك اختفى.. اختطفوه».

«نعم».

«لم لم تبلّغونا؟».

«هدّدونا، إن اتصلنا بالشرطة، سيقتلونه، وسيفجّرون الدار».

«كم مرّة اتصلوا بكم».

«أربع مرّات، أو خمساً».

«كم طلبوا؟ أقصد النقود؟».

«قد لا تصدِّق إنْ قلت لك؛ لا شيء.. منذ أسبوع وأكثر وهم يتلاعبون بنا».

«مَنْ يخطفونه يقتلونه، أو يطلبون فدية لإطلاق سراحه.. وإذاً ما غايتهم باعتقادك؟».

«حتى هذه اللحظة إخافتنا، وإبقاءنا حائرين مشوّشين».

«ربما لكي تلبّوا ما يطلبونه بعد ذلك».

«ربما».

«زوجة أبيك؛ أمينة، تحدّثت عن تابوت وضعوه تحت شجرة، ومن ثم اختفى».

«نعم، هذا ما حصل قبل يومين».

«أكانت جثة أبيك هي التي في التابوت؟»

«كان من المستحيل أن نتأكد.. المسافة بعيدة والوقت قبل الشروق».

«ألا تعتقد أن المسألة غريبة نوعاً ما؟».

«إنها غريبة جداً».

«وهناك سر؟».

«أكيد».

«أكيد.. وإذاً ما هو هذا السر باعتقادك أستاذ باسم؟».

«ليتني أعرف».

«طلب منّا أبو أمجد ألا نتدخّل في الوقت الحاضر للحفاظ على سلامة الحاج.. المسلّحون ينتشرون في البساتين ونحن ليست لدينا القوة الكافية لاقتحامها».

«يمكن للأمريكان أن يفعلوا.. أو الجيش».

«الأمريكان لا يتدخّلون.. يستطيعون لكنها لعبتهم.. قوة الجيش هنا سرية واحدة، ولم يتلقوا أوامر بهذا الخصوص.. نحن اعتقلنا بعض الأشخاص، ولم نصل بالتحقيق معهم إلى نتيجة».

«أفهمك».

«إن كنت تريد الالتقاء بعادل فسأسمح لك.. سنأخذه اليوم إلى سجن بعقوبة المركزي. لا نُبقي موقوفين عندنا، فالبلدة على كفّ عفريت كما يقولون، ويمكن أن يحتلّوها في أية لحظة».

«شكراً لك.. حقاً أريد أن أراه، ولا أعرف ما الذي عليّ أن أقوله له».

«في مثل هذه الحالات تكون الأحكام مخفّفة.. يمكنك تطمينه.. أنا شخصياً متعاطف معه، ولو كنت مكانه لأطلقت النار على رأسيهما».

«.....».

«على أية حال اتصل بنا إذا ما حصلت أية تطوّرات.. سأعطيك رقم هاتف الطوارئ.. وآسف لهذا كله.. أنتم عائلة محترمة ولا تستأهلون»

***

الطَرقات على باب غرفته متلاحقة، عصبيّة. يتناهى لسمعه وقع اسمه يتردد. هو بين اليقظة والمنام.. في الفجوة الكامدة بينهما..

يخمِّن، من غير يقين جازم، أنه صوتُ أمينة.. لم يتناول من وجبة الغداء إلا القليل. كلّمه النقيب عبر الموبايل بخصوص تقرير الطبيب الشرعي. ومنذ ساعة حاول أن ينام القيلولة، كما اعتاد في كل يوم، ولم يغفُ. يقفز من فراشه، مملوءاً بالتوجس، ويفتح الباب. وجه أمينة شاحب مخطوف. لم يألفها هكذا قط. ترتعد ونبرتها مخنوقة:

«جاء.. جاء».

«من جاء؟. عمّن تتحدّثين؟».

تسبقه نازلة الدرج، من غير أن تجيب.. يتبعها بقدمين حافيتين.. في الصالة يجفل إذ يجده جالساً وسط الأريكة بأسارير جامدة. كيف أطلقوه؟. أين كان؟. يتساءل في دخيلته. يراه بكامل أناقته؛ لحيته مشذّبة، وسترته وصايته الرماديتان مكويتان نظيفتان. وعمّته المكيّة المذهّبة تلمع.

«أبي».

يجهش أبوه بالبكاء.. يتحاضنان. يجلسان إلى جانب بعضهما على الأريكة. تتركهما أمينة وتذهب لتخبر نجاة.

«بابا، أين كنت؟».

«أنا آسف.. كلّه بسببي.. بسبب تلك النزوة.. لم أحسب هذا.. ما كان يجب أن يحصل هذا».

«حبسوا عادلًا.. وربما يكونوا قد أخذوه إلى سجن بعقوبة الآن».

«زرته.. كانوا على وشك ترحيله.. لم يقل شيئاً.. كان ذاهلاً كأنه في غيبوبة».

«وإذاً، لم تكن مختطفاً».

«لم أكن أرتاح لتلك المرأة.. أما الشيخ رفعت؟».

تقبل نجاة نحوهما بشعر منفوش وقسمات مصفرّة، ووراءها أمينة.. تبرك نجاة عند قدمي أبيها وتنخرط في بكاء حارق.. يقوم الحاج. ينحني وينهضها. تستمر بالبكاء، وعينا الحاج تغرورقان بالدموع. يردِّد:

«كارثة يا نجاة.. كارثة يا ابنتي حلّت بنا.. كارثة».

يقعد الحاج وتقعد نجاة على حافة كرسي قبالته جسمها منحنٍ نحوه، كما لو أنها تنتظر منه أن يقول شيئاً يعزّيها:

«الشيخ رفعت؟. الشيخ رفعت؟ ما الذي ورّطه؟ هذه من علامات الساعة».

«تلك الساقطة.. كنت أشم رائحة نتنة منذ بعض الوقت».

تسأل أمينة: «لماذا لم تنذريه؟».

«أنذرته، لكنها شيطانة».

يقول باسم: «لِمَ لا يكون هو الشيطان؟».

«كلكم تكرهونه».

«لا تدافعي عنه.. ليست مسألة حب وكره.. أمامنا واقعة في غاية الوضوح».

«كيف نعرف أنها ليست هي التي دخلت عليه وهو يستحم، وكان يدفعها عنه حين جاء عادل وأطلق النار».

«قد يؤذيكِ هذا، لكنني سأقوله لأجل إظهار الحقيقة. تقرير الطبيب الشرعي يؤكد أن مني الشيخ كان في جسمها.. منظرهما كان يوحي ساعة شاهدناهما بأنهما كانا منسجمين للغاية».

هذه المرة يجفلهم صوت أمينة الذي لا يزال مشروخاً وجافاً:

«سمعته يغويها وكانت تصدّه.. تمنّعت وظلّ يصر».

«لم لم تخبرينا؟».

«خفت من الفضيحة.. كانا سينكران ويكون موقفي سخيفاً ومحرجاً.. غوّلت على ردِّها.. قالت له أي شيخٍ أنت».

«وماذا بعد؟.. ماذا كان ردّه؟».

«أشار إلى مرّة سابقة».

«يا للمصيبة.. أتراكِ تفترين عليه؟».

«والله.. أحلف بالقرآن.. هاتِ كتاب الله، وسأحلف».

تلطم نجاة جبينها براحة يدها مرتين:

«يا للمصيبة».

تقول أمينة: «تمنّيت أن ينتهي هذا كله وتغادروا».

يقول الحاج: «أنا السبب.. أنا السبب».

«لا يا أبي.. أنت ومن حيث لم تقصد، عملت على كشف المستور».

«لا.. قصدت هذا.. عملت على كشف المستور، لكني لم أتوقع أن نصل إلى حدِّ القتل والفضيحة».

«ماذا سأفعل الآن.. إن نجا سأطلب الطلاق. ولكن ماذا سأقول لمحمد وفاطمة».

«الأولاد يجب أن لا يعرفوا الآن».

«الشيء الجيد الذي عليه أن يفعله الآن هو أن يموت».

«إصابته ليست قاتلة.. فقد دماً كثيراً، لكنه سينجو.. بنية جسمه قوية.. هي تلقّت الرصاصة بظهرها وجسمها خفف من حرارتها وزخمها.. أصابته في الجنب ولم تنفذ إلى قلبه».

«يا ليتها نفذت.. ثم أنت.. كيف تعرف هذا كله؟».

«قلت لكم هاتفني النقيب وشرح لي ما في تقرير الطبيب الشرعي».

سكتوا وكلٌ يحدِّق إلى جهة وكأنهم يتحاشون نظرات بعضهم بعضاً. حتى سأل باسم:

«لم تقل لنا، بابا، أين كنت؟ ولماذا فعلت بنا ما فعلت؟».

«فيما بعد، فيما بعد.. سُمْعتُنا تلوّثت.. لا أدري كيف سأمضي بقية

عمري في هذه البلدة.. لا أظنّني سأغادر البيت إلّا في نعش.. هذا ما سأفعله».

***

«ترى من كان أولئك الذين يتصلون بالموبايل، ويغرقوننا بشتائمهم؟».

«أبداً لن يعلمنا أبوك».

«وذلك الطلب الغريب والخطير؛ أن يذهب عادل إلى موضع المخزن القديم في البستان.. ذهبت أنا.. ألم يحسب أن من يصل إلى هناك ربما يقع في أيديهم.. أو... من يدري؟. من المحتمل أن أبي على اتصال بهم».

«أو هو يعلم أنهم ليسوا قريبين إلى هذا الحد.. البساتين تمتد حتى النهر، وتلك مسافة طويلة.. قال لي ذات مرة؛ اطمئني، نحن في أمان تقريباً».

« والتابوت؟ من جلبه ووضعه تحت شجرة فحل التوت، ومن كان الراقد فيه؟ ما كان الغرض من ذلك؟».

«تعلم أنك لن تعثر على إجابة.. لن يخبرنا.. أعرفه جيداً.. أعرفه أكثر من أي شخص آخر».

«تفكير ذو بعد درامي.. لابد من أنه اعتمد على أشخاص».

«لأبيك رجاله دائماً.. وما أنا متأكدة منه أنهم ليسوا أولئك

الإرهابيين».

***

«هذا بلاءٌ أسود»

قالها الشيخ علي عثمان، وكرّر:

«بلاءٌ أسود.. فماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟»

أغمض الحاج إبراهيم عينيه ثوانٍ، ولم يعقِّب:

قال أبو أمجد:

«والأدهى من سيُسكتهم؟. هذه البلدة بارعة في حبك القصص».

تأفف الشيخ علي عثمان، وقال:

«الشيخ رفعت؟ لو كان أي أحد آخر.. الشيخ رفعت؟ يا الله».

وتلوّت زاوية فمه.. قال أبو أمجد:

«الأهواء غلاّبة.. لا نعرف ماذا تخفي السرائر».

«لن أصدِّق حتى وإن رأيت بأم عيني.. الشيخ رفعت؟ وأنا الذي... يا الله».

أشعل أبو أمجد سيجارة.. كانت أقداح الشاي أمامهم فارغة.. قال الشيخ علي، وكأنه يقصد تغيير دفة الحديث، أنه لم يقرب الدخان منذ سنين طويلة.. هبّت ريح مباغتة رجّت أشجار النارنج في الحديقة

الأمامية.. كانت الستارة مزاحة عن ربع النافذة الواسعة.. أخبرهم أبو أمجد أن التلفزيون أعلن عن عاصفة مطرية وشيكة هذه الليلة، لكن الشمس ستشرق غداً.. دلف باسم إلى الصالة مرتدياً سروالاً رياضياً بلون الحنّاء وسترة جلدية سوداء.. صافح الشيخ علي وتبادلا عبارات تحيّةٍ مقتضبة.. أخذ باسم سيجارة من أبي أمجد وأشعلها.. جلس وهو يمصُّ عقب سيجارته، ويطلق الدخان.. أحضرت أمينة صينية أخرى عليها أقداح شاي وخرجت.. تمتم الحاج إبراهيم، وبالكاد فهموا ما يعني:

«لو كنت متُّ قبل هذا».

«ما كتبه الله في اللوح المحفوظ نراه يا حاج.. لا رادّ لإرادته، سبحانه».

«ولكن، ماذا فعلت؟».

«استغفر الله.. الله عزّ وجل لا يزن الأمور مثلما نزنها. ومهما كانت البلايا يتوجب أن نقول؛ الحمد لله».

ران صمت ثقيل، قطعه فحيح الريح في الخارج.. رأوا في جزء السماء الظاهر عبر زجاجة النافذة غيوماً تتدحرج.. أدار الشيخ علي عينيه وتفرّس في وجه الحاج إبراهيم قليلاً، وهمس:

«لم تقل لي يا أبا فريد أين كنت؟».

أشاح الحاج وجهه عنهم مرسلاً نظره إلى جهة النافذة:

«لا تقل لي أنك كنت مختبئاً ليس إلّا».

لم يحر الحاج جواباً.. التفت الشيخ نحو أبي أمجد وسأله:

«قل لي أنت، أين كان؟».

زفر أبو أمجد وهزّ رأسه:

«لا أدري ما أقول.. واللهِ، لا أدري».

«هذه لعبة صبيان.. كيف تتورّط بمثلها؟».

أدرك الحاج، وما يزال يحدِّق في النافذة، أنه مقصد هذا السؤال.. قال:

«الشيطان».

قال باسم:

«الشيطان مرّة أخرى».

لم يفهموا إن كان يؤكد كلام أبيه، أم هو يتهكم.. قال أبو أمجد:

«سنوكِّل محامياً جيداً لأجل عادل».

«ليست المشكلة هنا.. لا».

«ما علينا في هذه الحالة إلاّ التعويل على النسيان».

قد يكونوا احتاروا في ما عنى باسم بعبارته.. ظنَّ الحاج إبراهيم أنه فهم.. ردّ بإنكار:

«ليس بمقدورك جعل بلدة كاملة تنسى.. كيف ينسى ثلاثون ألف شخص لا يريدون أن ينسوا».

اليوم التاسع

يتواصل الرنين في غرفة نجاة.. تدرك أنه رنين مخابرة خارجية.. هي واقفة تنظر إلى هيأتها في المرآة.. صورة امرأة ينبئ ذبول وجهها أنها لم تنم جيداً في الليلة الفائتة.. تخمّن أن فريداً هو من يتّصل بها.. لا تقرب هاتفها.. إلى جواره، على المنضدة العريضة، هاتف الشيخ رفعت أيضاً.. أقفلته أمس بعدما تردد صوت جرسها، المحاكي لجرس الهواتف الأرضية القديمة، مرتين.

يعود هاتفها ليرنّ ثانية.. تسير نحوه بخطى متعبة وتنظر إلى الشاشة.. تخمينها كان صائباً؛ إنه فريد.. تفكّر أنْ ليس لديها ما تقوله له.. لا رغبة لها بالكلام عن أيِّ شيء مع أيِّ أحد، ولن تكون بانتظار اتصال من أيِّ أحد، في أيِّ وقت، وربما إلى زمن غير معلوم.

تقفل هاتفها وترجعه إلى مكانه على المنضدة المركونة في الزاوية؛ منضدة خشبية سطحها من الفورميكا اللامعة.. تمسك بهاتف الشيخ رفعت.. تضغط عليه بأصابعها.. ترجع يدها، وملامحها تتقبّض.. تقذف الهاتف بقوّة نحو الجدار فتتناثر أجزاؤه على السجادة.. تقع مثل كلب مريض، أمام الجدار، وتشرع ببكاء موجع.

مع اللحظة التي تسمع فيها أمينة صوت ارتطام شيء على الجدار الفاصل بين غرفتها وغرفة نجاة يرن هاتفها. تُدني الشاشة من عينيها لتتأكد من الاسم.. المخابرة خارجية، ومن يخابر فريد.. تقول بصوتٍ مسموع:

«بم أُخبرك؟ أهذا وقته؟»

تقفل هاتفها وتغادر الغرفة.. في المطبخ تفتح الراديو.. تسحب كرسيّاً من طقم مائدة الطعام وتجلس.. بعد قطعة موسيقية سريعة يبدأ برنامج يحكي عن أنفلونزا الطيور.. لا تبدِّل المحطة على الرغم من أن الموضوع لا يهمّها.. أو أنها ببساطة لا تصغي إليه..

المطبخ دافئ، وأمينة مغمورة بأشعة الشمس المنسلّة عبر النافذة الواسعة.. تنقل بصرها بين أرض الحديقة المعشّبَة التي تنتشر عليها بقع جرداء رطبة، وأوراق الأشجار الراعشة بفعل الهواء الخفيف.. لا تندهش لمّا يصبح فلاّح في أواسط العمر في مرمى نظرها.. الفلاّح يرتدي دشداشة بنّية مشدودة إلى وسطه بحزام جلدي عريض.. يلف رأسه بغطرة بيضاء منقّطة بالأسود.. يحمل مقصّاً كبيراً ذا مقبض برتقالي.. تبدو عروق يديه نافرة وهو يباشر بتشذيب شجيرات الورد.. يلقي نظرة خاطفة نحو النافذة وكأنه يتوقع أن هناك من يراقبه.. زجاجة النافذة معتمة من الخارج لذا لا تسدل أمينة الستارة.

لا تلتفت حين يدخل الحاج إبراهيم.. يغلق الراديو.. يسحب

كرسياً ويجلس إلى جانبها.. تسأله إن كان يرغب أن يأكل الآن.. يقول إنه بحاجة لكأس شاي.. لساعة لا يجدان ما يمكن أن يثرثرا حوله.. ينتهي الفلاّح من عمله.. يجمع ما قطعه من الأغصان والأوراق في كيس من الجنفاص.. يقرفص ويدخّن سيجارة.. ووجهه إلى جهة السياج الخارجي للدار.. يقوم ويرفع الكيس ويمضي ليختفي من المشهد قبالتهما.. على مهله ينهض الحاج بوجهٍ تنكمش قسماته، فعموده الفقري يؤلمه.. يخبر أمينة أنه سيصلّي الظهر، ومن ثم سيتمشى قليلاً خلف الدار.. لا تعلّق.

***

«ألكِ فكرة عن صورة العالم الذي يتحطم مثل جرّة؟».

«مثل جرّة؟!».

«هي من قصة الخلق البابلية، وواقعة الطوفان.. ألم تقرئي ملحمة جلجامش؟».

«قرأتها من زمن بعيد.. لم أعد أذكر منها أشياء كثيرة».

«وإذاً لم يكن مختطفاً.. كان يختبئ في دار يملكها، قريبة من السوق. وطوال الوقت كان وكيله أبو أمجد يعرف.. كان متواطئاً معه ويتلاعبان بأعصابنا.. كنّا لعبته».

«كنّا جرّته وقد تركها تسقط في الشارع أمام الناس، وتتكشف ما

حوت من أوساخ».

«أنتِ لمّاحة.. هذا ما قصدته حين سألتكِ عن الجرّة العتيقة في الملحمة».

«الجرّة التي لن تلتحم ثانية».

«أبداً».

«وأنت، ماذا ستفعل بعد هذا كله؟».

«سأغادر طبعاً.. غداً صباحاً.. باكراً جداً.. ومن ثم في الأسبوع القادم سأكون خارج البلاد».

«ستبدأ رحلة تيه أخرى».

«ليس في نيتي الهجرة الدائمة.. يكفيني منفاي هنا».

«أنا أيضاً في منفاي الخاص.. قد أقدر أن أفعل شيئاً الآن، أو أغيّر شيئاً.. ربما أجبرته على اتخاذ بعض القرارات.. لم أره يبكي قط.. في الليل كان يبكي ويلوم نفسه.. تكلّم مع نجاة.. يشعر بأنه مسؤول عمّا حصل.. حكى عن تربية طفليها وأطفال عادل حتى وإن لم يمت رفعت.. قال إنه سيقدِّم شكوى كي يبقي الطفلين في حضانة أمهما».

«رفعت سينجو.. ليلاً اتصل بي النقيب مرّة أخرى.. قال؛ أهل عاتكة استلموا جثتها ودفنوها بسرعة ولم يقيموا مجلس عزاء.. نقيبنا فضولي ويتشمّم الأخبار».

«نجاة أصرّت على أنها لا تستطيع ترك بغداد. هناك بيتها ومكان وظيفتها. ستطلّق زوجها وتطرده من البيت، وستربّي الطفلين. سيكون هذا واجبها إلى أن تموت.. كانت تردّ على اقتراح أبيك بأن تعيش هنا.. أبوك قال لي: عليكِ يا أمينة أن تستعدّي لتربية أطفال عادل.. الكبير في الحادية عشرة، والبنتان في العاشرة والثامنة».

أردفت بنبرة استشعر فيها باسم بعض التهكم:

«أخيراً سأكون أمّاً».

«أفكّر بردود أفعالهم.. ليسوا صغاراً جداً.. من الصعب أن يفقد الطفل والديه، لاسيّما بهذه الطريقة.. لن تكون مهمتكِ سهلة.. ولكن في الأقل ستكون لحياتكِ هدف ومعنى».

«أنت على حق.. هذا حل معقول لمشكلتي المستديمة، لرتابة حياتي وخوائها.. قطعاً لم أرد أن يحدث ما حدث، لكنه حدث، وعلينا أن نتكيّف ونتعامل معه».

«تملكين الشجاعة الكافية لهذا.. أنا متأكد».

«وأنت، لماذا لا تتزوج؟ انس حكاية لينا، وابحث عن امرأة تناسبك».

«لا أدري يا أمينة.. لينا امرأة يستحيل نسيانها.. قبل منتصف الليل، كنت مشوّشاً بسبب ما حصل.. وفي لحظة خطر لي أن أتصل بها..

تردّدت، أفكار غريبة خبطت دماغي، غير أنني في الواحدة تماماً ضغطت على ذلك الزر.. تأخرتْ في الرد.. كانت نائمة.. بصوتٍ نعسان سألتني: ماذا تريد؟.. قلت لها: أنا في وضع لا يسمح لي أن أشرح لكِ الآن أيِّ شيء، لكني أعتذر منكِ.. أنا قادم بعد أسبوع إلى بيروت.. سكتتْ.. طال سكوتها.. أنا أيضاً لم أنطق بحرف آخر.. كنت أسمع صوت تنفّسها.. أخيراً قالت: تعال، وأقفلت الخط».

«ستذهب إلى لينا إذاً؟».

«إن جرى كل شيء على ما يرام، سأعود بها إلى بغداد».

«أتراها توافق؟».

«أعوِّل على حقيقة أنها في الأصل ما كانت راغبة بترك البلاد».

«يبدو أننا مجبرون على الانهماك في صنع جرّة جديدة».

تمّت

(أعتقدَ أنها فطنة إلى الحدِّ الذي أحسّت باهتمامه بها منذ أول نظرة. غير أنه ما كان واثقاً من استجابتها. وبدا سلوكها محيِّراً له، فسّره بحسب مزاجه ودرجة تشوّشه ومخاوفه.. ستصدمه، في أول لقاء يجلسان فيه معاً لوحدهما في كافتريا الدائرة لمّا تفصح ضاحكةً أنها تقرأ أفكاره، وتلتقط إشارات عن ارتباكه، وتسارع دقات قلبه، وولعه الحارق.. سيتلعثم قليلاً، ويضحك بخجل مفضوح. وسيقرِّر أن يبوح لها كي لا تكتشف مدى ضعفه، لكن اعترافه سيكون ناقصاً بهذا الصدد، وسيعرف أنها تعرف أنه لا يقول من الحقيقة إلا نصفها. وسيشعره هذا بأنها أقوى منه، وتدرك أنها أقوى منه، وأن العلاقة بينهما ستتخذ، لبعض الوقت، مجرى متعثراً مملوءًا بالمصدّات. سيتردد في أن يقول لها؛ «وإذاً، ما رأيكِ»، وستتلقى سؤاله من غير اندهاش، وسيفهم أنها تلقّته، ولن يفهم من البريق المخضرّ العذب الغامض المشعِّ في عينيها بأنها تبادله العاطفة ذاتها. وسيحتاج إلى ستة لقاءات أخرى أو سبعة قبل أن ينطقها صريحةً؛ «أحبكِ يا لينا، أحبكِ».

isbn: 978-9922-608-11-2
9 789922 608112

سنا للنشر والتوزيع

SUMER
Printing, Publishing&distribution

سطور
دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد- شارع المتنبي- مدخل جديد حسن باشا
07700492567 - 07711002790
Email: bal_alame@yahoo.com